الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة منتوري – قسنطينة
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم علم الاجتماع والديموغرافيا
رقم التسجيل: .....
الرقم التسلسلي: .....

سكان البابور النازحون والتحديات الصعبة

دراسة أنثروبولوجية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية

من إعداد الطالبة:
- قرشوش موسى
مديرة

تحت إشراف:
- أ. الدكتورة كلودين شولي

تاريخ المناقشة: .....

لجنة المناقشة:

- سفاري ميلود	رئيسا	أستاذ التعليم العالي	جامعة منتوري – قسنطينة
- كلودين شولي	مشرفا مقررا	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر
- أ. خريف حسين	عضوا	أستاذ محاضر	جامعة منتوري – قسنطينة

السنة الجامعية: 2005/2004

مـــــــدخل :

إن الباحث الأنثروبولوجي يقوم بدراسة الأقسام و ما ينطوي تحتها من أقسام فرعية مستخدما في ذلك المنهج الكلي، أي أن تشمل دراسته كل أجزاء البناء الاجتماعي وتعد هذه الطريقة من أهم خصائص الأنثروبولوجيا الاجتماعية.[1]

هذا فيما يخص الجانب الاجتماعي، أما الثقافة وكما تعرف لدى الأنثروبولوجيين المحدثين بأن: « الثقافة، ذلك الجزء من البيئة الذي صنعه الإنسان». وينطوي هذا التعريف على أن الثقافة تعيد صياغة عناصر العالم الطبيعي على نحو يساعد على تلبية حاجيات الإنسان.[2]

فانطلاقا من هذين المفهومين الاجتماعي والثقافي الذين حددتهما الأنثروبولوجيا حاولت تطبيقها على وسط اجتماعي وجغرافي ينتمي إلى القبائل الصغرى، لم تحض بما حظيت به القبائل الكبرى من الدراسات المتعددة التي وصلت إلى أكثر من 300 مؤلف.

إشكالية البحث:

حاولت أن أربط هذه الدراسة الشاملة: جغرافية، تاريخية، اقتصادية، اجتماعية وأنثروبولوجية ونفسية، لما شهدته المنطقة من تحول عميق خلال العشر سنوات الماضية تمثل أساسا في نزوح سكان الأرياف بشكل مثير،جعلها قرى خاوية على عروشها. نزوح قدر حسب الإحصائيات الرسمية بـــ 5665 نازح[3] و ربما يكون العدد أكبر لأن مصالح بلدية بابور لا تملك الإحصائيات المضبوطة بدقة، نازحون عاشوا خوفا ورعبا شديدين زرعته الجماعات المسلحة التي بدأت تتزايد منذ 1992 و أحكمت سيطرتها على المداشر الواقعة في الشمال تصول و تجول وتفرض قوانينها على السكان في غياب كامل للدولة، التي لم تلاحظ تحركاتها إلا في 1995. ثلاث سنوات كاملة من الغياب دفع بالآلاف من السكان إلى البحث عن الأمن والاستقرار سواء بالاقتراب من مركز البلدية الذي يتوفر نسبيا على الأمن، وكذلك تجمع الشرفة السكني، بينما حمل سكان بقية المداشر السلاح دفاعا عن أنفسهم، ومن بقي مستقرا لم يسلم من خطر الموت والجوع والعزلة.

---

(1) د. عاطف وصفي: الأنثروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية، بيروت، ص 86.
(2) م.ج هركو فيتز: أسس الأنثروبولوجيا الثقافية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1973، ص 5-19.
(3) Les migrations internes, intercommunales O.N.C. n° 331.

كما أنه لم يسلم من ضغوطات السلطات الأمنية، فقد حددت لهم كميات التموين بالدقيق وشتى المواد الضرورية وانتزعت منهم سياراتهم أو أجبروا على بيعها مما زاد من عزلتهم وصعوبة تنقلهم، خاصة في مداشر لرباع، واد عفرة، بني بزاز، لجوادة، بني سعيد، تاقليعت، مجرقي.

فلم يجدوا بدا من هجرة مداشرهم، متجهين نحو البلديات المجاورة عين الكبيرة، أولاد عدوان، الأوريسيا، ونحو العاصمة. والعدد الكبير منهم التحق بتجمعات سكنية ريفية حول المدن، مما يبرز شدة محافظة هؤلاء النازحين على البناء الاجتماعي: الدشرة، الأسرة وعلى الخصائص الثقافية واللغة القبائلية وعلى العادات والتقاليد السائدة.

بينما من يتوفرون على إمكانيات مادية قوية اندمجوا ضمن المحيط الاجتماعي والعمراني في عين الكبيرة و الأوريسيا والعاصمة.

إن الهزة العنيفة التي شهدها الريف الجزائري خلال المأساة الوطنية كبيرة جدا، فحسب تصريح وزير الداخلية فإن عدد النازحين من الأرياف الذين أجبروا على مغادرة بيوتهم بلغ 1,2 مليون شخص[1] ، جعل الريف يتخلى عن دوره الاقتصادي المتمثل في الفلاحة، ويزداد الضغط السكاني على المدن والتجمعات الحضرية وما صاحبه من أزمة السكن واتساع دائرة البطالة وتشكل علاقات اجتماعية على أسس غير مستقرة وغير ثابتة، مما خلق اضطرابات اجتماعية وآفات أخلاقية ترجمت في الواقع الاجتماعي بالسلوك العدواني كالسرقة والاعتداء الجسدي وجرائم القتل والانتحار التي تطالعنا به يوميا الجرائد الوطنية.

إن هذه المأساة التي انطلقت في بدايتها سياسية، بعد إقدام السلطة الفعلية (الجيش) على توقيف المسار الانتخابي في جانفي 1992 إثر فوز الجبهة الإسلامية بأغلبية المقاعد في البرلمان، وتخوف الكثير من قيام الدولة الإسلامية للإنقاذ (التي ستطبق عليهم قوانينها وتغير مسار حياتهم). حصل التصادم بعد أن قرر مناضلو الجبهة الإسلامية حمل السلاح واسترداد حقهم المغصوب بالقوة، وشرعوا في قتل عناصر الأمن من شرطة ودرك وجيش وتطورت الأوضاع بشكل خطير جدا، لما فتحت السلطة المعتقلات القسرية وزجت بعشرات الآلاف فيها.

وصار الوضع في غاية التعقيد وتوسعت المواجهة بين عناصر الأمن وبين ما صار يعرف بالجماعات الإسلامية المسلحة في المدن الكبرى وعلى المحاور والطرقات التي تتحرك عبرها عناصر الأمن فتنصب لها الحواجز المزيفة، والقنابل الموضوعة في التجمعات السكنية والأماكن

(1) L’expression, Lundi 5 Août 2002.

الاستراتيجية، والاختطافات الليلية ورمي الرؤوس المفصولة عن الأجساد في الطرقات قصد إحداث الترويع، صارت جزء من الحياة اليومية للجزائري، وبالتالي لم يعد من السهل التنقل للعمل أو السفر والتعلم والتجارة، فسارعت الإطارات إلى الفرار إلى خارج البلاد هروبا من القتل ومن الجو المرعب الخانق الذي لا يمكن تحمله.

كما أفرزت هذه المأساة مفاهيم جديدة وواقعا تحدى الجميع سواء سياسيين أو دعاة أو مفكرين ولم يعد سوى صوت الرصاص هو المسموع، وتعين على كل جزائري أن يحدد موقعه، أهو إلى جانب هذه الجماعات المسلحة التي تعتبر نفسها في جهاد وتقوم بواجب إقامة الدولة الإسلامية و إسقاط الطاغوت، والتي استطاعت أن تقنع العديد من الشباب وتجندهم في صفوفها، كما تمكنت من السيطرة على مناطق جبلية معزولة وصارت تسمى بالمناطق المحررة، وشمال البابور واحدة منها، حيث تقوم بتنفيذ هجمات خاطفة على مؤسسات الدولة من أجل الحصول على المال أو المئونة أو السلاح ثم ترجع مسرعة للاحتماء بغابات البابور المنيعة. وظلت كذلك إلى أن تمكن الجيش من دخول جبال البابور في نهاية سبتمبر 2003.

أو أن يختار موقعه إلى جانب السلطة ضمن ما عرفه بالرجال الواقفين وهم مدنيون قبلوا التجنيد في صفوف الحرس البلدي والدفاع الذاتي وأعلنوا صراحة وقوفهم إلى جانب السلطة، فاستبيحت دماؤهم هم وأفراد أسرهم وظلوا مطاردين من هذه الجماعات حيثما وجدوا، ودخلت الأعراش والمداشر في صراعات داخلية، وتشكلت العداوات خاصة بعد سقوط قتلى من هذا الطرف أو ذاك. وبالتالي دخل المجتمع وضع الفتنة التي تأتي وتصيب من ليس طرفا في الصراع، ووجد الذين كانوا على الحياد أنفسهم في قلب المعركة، فهم مجبرون على تحديد مواقعهم سواء إلى جانب هذه الجماعات المسلحة، فاختار أغلبهم الرحيل والخروج من دائرة الصراع الذي لا يعنيهم، فهم مواطنون بسطاء همهم قوتهم اليومي والعيش في ظل العفاف والكفاف، فليس لديهم أي طموح إلى الوصول إلى السلطة والإطاحة بها، وليس لديهم أي طمع في الدولة كما يقولون في أن تكافئهم وتتفضل عليهم بالامتيازات كالسكن والشغل وغيرها.

فبين هذه الدوائر الثلاث، السلطة و الواقفون معها، والجماعات المسلحة، والسكان المحايدون، ظل الصراع قائما، ولم يتبين فيه الغالب والمغلوب إلا في 1997 حيث أحكمت القوات الأمنية سيطرتها على المواقع الأساسية المحيطة بالبابور و أجبرت كل من تبقى من سكان المداشر على الرحيل، كي لا يكونوا عامل دعم لهذه الجماعات المتراجعة، في ظل هذا الوضع الجديد الذي

هو في صالح الدولة، تغير الخطاب وتغيرت المصطلحات، فمن كانوا يسمون في الأمس القريب بالمجاهدين صاروا يسمون بالمجرمين القتالين وصار الناس يتفادون ملاقاتهم بعد أن كانوا يسعون إلى خدمتهم ويتبركون بهم.

و بقيت صورة الدين الإسلامي ملطخة بالدماء التي سفكت و مشوهة بالجثث التي قتلت والأرواح التي أزهقت، وبدأت الصورة الجلية مع مرور الوقت تتضح أن الإسلام بريء من أفعال أناس تسموا باسمه فقط. و لم يلتزموا بأحكامه وتشريعاته التي تقدس الروح البشرية وتجعل إزهاقها أمرا عظيما عند الله. و تبقى إقامة حدود القتل من واجبات رئيس الدولة فقط الذي خولته الأمة حكمها، فمن هذه الواجبات « إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك ». [1]

وكم كانت التجاوزات في حق الأفراد المسالمين كثيرة، طالت أموالهم وأعراضهم ودماؤهم، مازال مقترفوها دون عقاب ولم تقم عليهم الحدود.

ولم يسلم سكان مداشر البابور من تجاوزات رجال الأمن بالضرب والشتم والإهانة والاتهام بالتواطؤ مع الإرهاب والإحالة على المعتقلات والسجون – من دون ذنب – مما يبرز نقص الاحترافية و التكوين و القيام بالمهام بأقل الأخطاء، في حق المواطنين بعيدا عن تصفية الحسابات و الرشوة و المحسوبية و المحاباة و الرغبة في النيل من ضعاف الناس الذين لا حيلة لهم في دفع الضرر عن أنفسهم.

إن هذه المأساة أحدثت اختلالات في التوازن الاجتماعي والاقتصادي والنفسي للسكان، حيث تعرضت مداشر إلى التشتت والتشرذم وبذلك سيضيع الطابع الثقافي الذي دأبت على صنعه ضمن دائرتها الثقافية، من خلال أشكال التضامن و الزواج و الزردة، و بالتالي ستختفي الوظائف التي تؤديها هذه الآليات التي صنعها المجتمع وسيكون في هذه الحالة البناء الاجتماعي معرض للخلخلة والتفكك.

وكذلك الأسرة الممتدة التي تضم الأب و الأم و الأبناء الكبار وأبناءهم، لا يمكن لها أن تستمر في الوجود في المحيط الجديد بسبب انعدام السكن وقلة مصادر العيش ومصادر الدخل الاقتصادي، وقد حلت محلها الأسرة الصغيرة مثل ما لاحظت ذلك من خلال دراستي الميدانية.

واللغة المسماة محليا لقبايلية، مهددة بالاختفاء والتراجع فهي المنطقة الوحيدة من القبائل

---

[1] عبد القادر أبو فارس: النظام السياسي في الإسلام، طباعة الاتحاد الاسلامي العالمي، 1984، ص 199.

الصغرى التي بقيت محافظة على هذه اللهجة [1] أتت هذه التحولات لتزيد من تراجعها، فالأبناء لا يعرفونها على الرغم من أن آباؤهم وأمهاتهم يتكلمون بها داخل البيت وكذلك الكبار حينما يجتمعون مساء مع بعضهم البعض كما جرت العادة.

وهنا يطرح مشكل الاندماج مع المحيط الجديد والتأقلم مع الواقع الاجتماعي الجديد عليهم، فهم في البداية ينظر إليهم على أنهم وافدون جدد، جاؤوا لمزاحمة السكان الأصليين في المجال الجغرافي وفي مصادر الرعي والماء، والشغل وغيرها، ومنهم اعتبر مجيئهم نقلا للإرهاب إلى هذه المناطق الآمنة. وحسب ما أدلى به بعضهم أن نظرة السلطات المحلية لم تكن تعطف عليهم وتقدر وضعيتهم الكارثية، وأقصى ما سمحوا لنا به كما يقولون هو إنجاز مسكن متواضع بعد سلسلة من الاستنطاقات والاستدعاءات الموجهة من طرف البلدية والدرك، وهناك من طرد ومنع من بناء سكنه لأنه صعد النقاش ولم يكن رده لينا ولبقا، وهناك من أحيل على العدالة، فهذه الصعوبات تضاف إليها استحالة الحصول على منصب عمل مستقر أو تحقيق وضعية اجتماعية مريحة، فنحن مازلنا غير مستقرين وبالتالي خيار العودة في حالة تحسن الوضع الأمني إلى الدشرة الأصلية مطروح لدى البعض، لأن التعلق بالديار كامن داخل النفس والأيام الملاح التي انقضت من الأعمار في تلك المناطق الخلابة والهادئة لا يمكن نسيانها، والتفكير في استئناف الحياة الاقتصادية من جديد أمر لابد منه لمن لم يجد شغلا أو وضعية اقتصادية في الموقع الجديد، بينما البعض يستبعد العودة أصلا ويرى أن مستقبل أبنائه لا يمكن المخاطرة به، فلا شغل ولا تعليم ولا تنمية يمكن أن تحفز على العودة ويمكن اعتبار هذا الوضع الأمني فرصة لا تعوض من أجل النزوح النهائي، فالثقافة الاجتماعية وقيودها الضابطة لا تعطي حرية الخروج عن الدائرة الثقافية والاجتماعية للدشرة، وفي ظل هذا الوضع المتأزم ما لم يكن متاحا صار متاحا وبالتالي ففرصة النزوح لا يمكن تضييعها ولا طالما انتظرها الكثيرون.

منهجية البحث:

إن البحث الذي هو بين أيدينا ينقسم إلى بابين نظري وتطبيقي.

الباب النظري يقوم على قراءات لأكثر من 50 مؤلفا باللغتين الوطنية والأجنبية، لها علاقة بالموضوع بمختلف عناصره، كما يتضمن إحصائيات ومعطيات سعيت لجمعها من مختلف المصالح البلدية، الولاية، المتحف الوطني للآثار بسطيف، المديريات التنفيذية للولاية، الصحة،

(1) Encyclopédie Berbère : N° IV, P1295.

الفلاحة، الشؤون الاجتماعية، التربية، الديوان الوطني للإحصاء، المعهد الوطني للخرائط وغيرها.

أما الباب الميداني فيرتكز على المقابلات التي أجريتها مع سكان البابور النازحين والسكان الذين مازالوا قاطنين، ومع مسئولين محددين، وأخصائيين نفسانيين وأساتذة لهم معرفة بالموضوع، وتمكنت من جمع كم معتبر حول الموضوع. شرعت في انتقاء ما احتاجه من هذا الكم، وقد وجدت صعوبة كبيرة نظرا لقلة اشتغالي بالبحث من قبل. واعتمدت أدوات التحليل المعرفة في الأنثروبولوجيا بصفة خاصة والعلوم الاجتماعية بصفة عامة. ومنها المنهج الكلي الوصفي التحليلي والمعروف بالمنهج البيوغرافي.

كما اعتمدت المنهج البنيوي في شرح القرابة واعتمدت الاستدلال والاستقراء والقياس في مختلف الفصول.

تعريف بلدية بابور :

بابور بلدية نائية من بلديات ولاية سطيف، هي عبارة عن مركز استعماري منذ 1956.ثم ارتقت إلى مستوى بلدية سنة 1958. وبعد الاستقلال ومنذ نشأة البلديات وهي بلدية مستقلة بذاتها، وظلت تابعة إلى دائر عين الكبيرة إلى غاية التقسيم الإداري لسنة 1984، حيث ارتقت إلى دائرة.

واستنادا إلى محاضر جلسات المجلس الشعبي البلدي فإنها وإلى غاية 1952 كانت تابعة للبلدية المختلطة تاكيتونت، ثم صارت تابعة للبلدية المختلطة Perigot ville وتسمى آنذاك بدوار بابور.

تبعد عن مقر الولاية بنحو 50 كلم شمالا، تحدها شمالا الزيامة المنصورية و ايراقن التابعتين لولاية جيجل، وغربا تامريجت ولعلام من ولاية بجاية وكذلك بلدية واد البارد وتيزي نبشار التابعتين لولاية سطيف، وجنوبا بلديتي عموشة وعين الكبيرة، وشرقا بلدية سرج الغول التابعة بدورها لدائرة بابور.

تقدر مساحتها بـــ: 154كلم^2 ويبلغ عدد سكانها حسب الإحصاء العام للسكن والسكان لسنة 1998 بـــ : 18443 نسمة، بينما يبلغ العدد في إحصائيات 1987 بـــ : 18495 نسمة، مما يبرز التراجع السكاني بسبب تدهور الوضع الأمني وحدوث نزوح سكاني كبير.

وتعد بلدية معزولة بسبب الحواجز الجبلية التي تفصل جزءها الشمالي عن الجنوبي وتتمثل في كتلة البابور، بالإضافة إلى المنخفضات والأودية العميقة التي تصعب من مد شبكة قوية من الطرقات، ولهذا بقي الجزء الشمالي بعيدا عن التنمية، فلم تصل إليه الكهرباء والطريق الذي يصل بابور بالزيامة ما هو إلا مسلك ضيق وغير مهيأ للتنقل السهل والمريح. وقد سمح الوضع التضاريسي العازل لهذا الجزء من تمركز الجماعات المسلحة واتخاذها للمنطقة كقاعدة انطلاق لعملها المسلح. وانقلب وضع سكان الأرياف جذريا، وحسب بعض المؤرخين وما أعطوه من تفسيرات لأصل تسمية بابور أنها مستمدة من وهي مجموعة من القبائل التي سكنت المنطقة خلال منتصف القرن الميلادي الثالث إبان الاحتلال الروماني للشمال الأفريقي[1]

[1] Encyclopédie Berbère : N°IV, P1296.

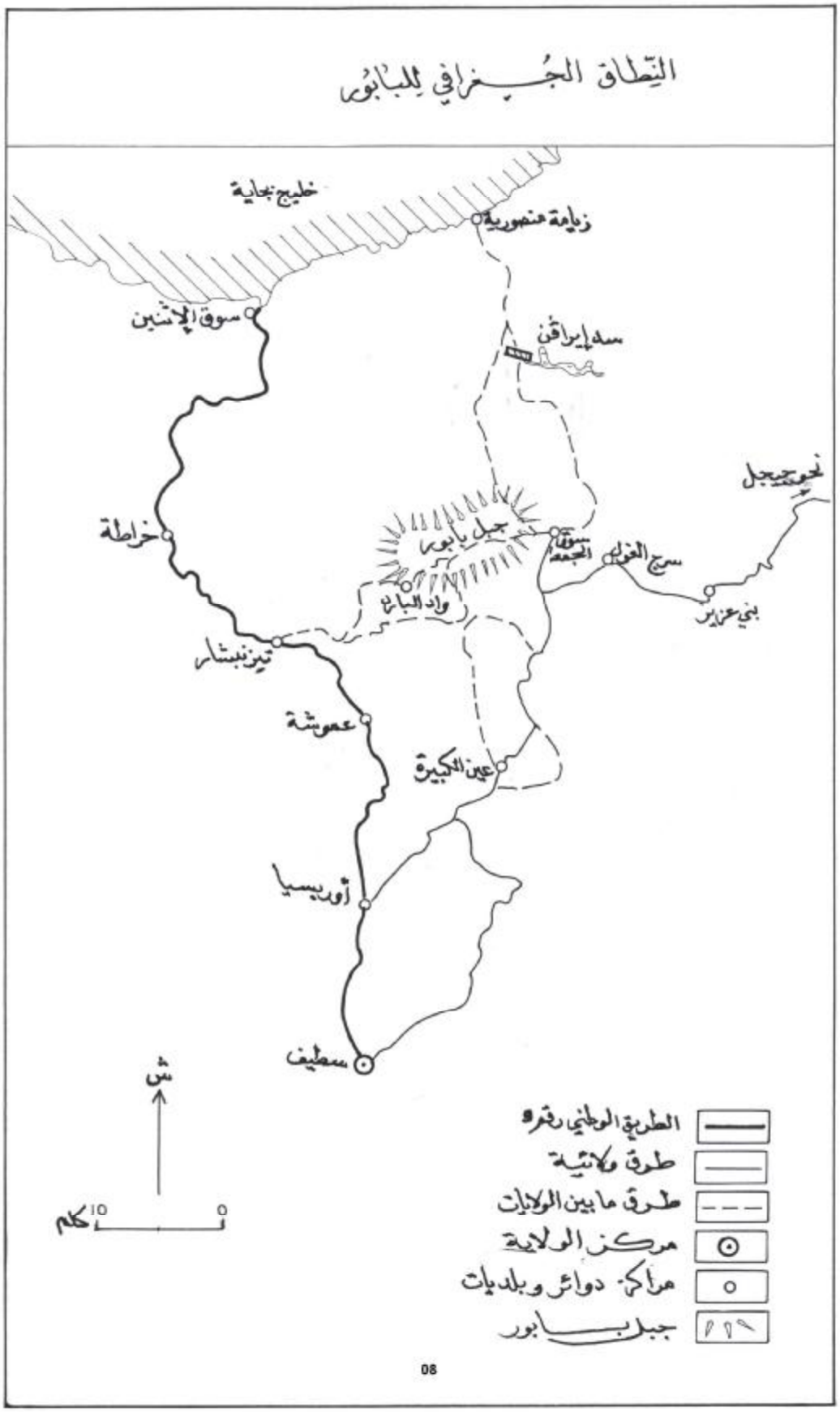
النطاق الجغرافي للبابور
خليج بجاية
زيامة منصورية
سوق الإثنين
سد إيراقن
نحو جيجل
خراطة
جبل بابور
سوق الجمعة
سرج الغول
واد البارد
بني عزيز
تيزنبشار
عموشة
عين الكبيرة
أوريسيا
سطيف
ش
0
10
كلم
الطريق الوطني رقم 9
طرق ولائية
طرق ما بين الولايات
مركز الولاية
مراكز دوائر وبلديات
جبل بابور
08

دراسة الوسط الطبيعي:

التضاريس:

أهم مظاهرها الجبال والمنخفضات.الطابع الجبلي هو المسيطر على اكبر مساحة من تراب البلدية، حيث تمثل كتلتي البابور وتبابورت أهم المظاهر التضاريسية.

فكتلة البابور بعلوها الذي يصل إلى 2004 متر وبطولها الذي يقدر بـــ 7 كلم وشكلها البيضاوي الذي يظهر من بعد 50كلم، وباتجاهها من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي مسايرة بذلك اتجاه السلسلة الأطلسية التلية، سفحها الجنوبي ينحدر بنسبة 50%، مما جعل الصخور الانهدامية ومختلف العناصر تتراكم على قدمها، الذي يبدو عاريا من الغطاء النباتي بينما صدرها وإلى غاية القمة تغطيه غابة كثيفة.

بينما السفح الشمالي أقل انحدارا تتدرج عليه بعض القمم إلى أن يلتحم بتوأمه تبابورت ، وعليهما يطلق الجغرافيون اسم Les Babors. و هو أقل ارتفاعا و طولا و انحدارا من البابور فأعلى قمة تعلوه تقدر بـــ: 1969متر.

وإلى الشمال من كتلتي البابور وتبابورت تتواجد مجموعة من الجبال التي لا يتعدى علوها 1000 متر، و هو ما جعل التسميات التي تطلق عليها تنحصر في كلمة ذراع ورأس، مثل ذراع جبار وذراع لمرارة ورأس لوطا. وإلى الشرق منها يقع جبل بوقايس.

وجنوب البابور تتواجد بعض الكتل الجبلية المتباعدة عن بعضها البعض مثل جبل بن نمر وأقرمون و ذراع لعطش ويتجاوز علوها 1000 متر.

أما المنخفضات التي تقع أسفل البابور والتي تنتهي بأودية، فمن الناحية الغربية يوجد واد الدردار، و إلى الشمال من تبابورت يأتي واد عفرة، ومن الجهة الشرقية واد دار الرسم ومن الجنوب واد بربر الذي يصب في سد إيغل أمدا، و واد بوعنقود الذي يتصل بدوره بالشبكة المائية بالواد الكبير.

الجانب الجيولوجي:

لمعرفة التكوينات الجيولوجية للبابور أخذنا مقطعا عند كتلة البابور وهو ما توفر لدينا، فحسب Duplan الذي أجرى دراسة سنة 1952، وحسب ما يشير إليه المقطع أن كتلة البابور تتركز على تكوينات المارن و الشيست و الكلس و تعود في مجملها إلى تكوينات عصري الكرتاسي و الجوراسي من الزمن الجيولوجي الثاني و التكوينات السطحية التي تعود إلى الزمن الجيولوجي الرابع.

المناخ:

لاتتوفر البابور على محطات لرصد حالة الطقس، وبالتالي فالمعطيات المناخية المتوفرة هي لفترات زمنية سابقة تصل إلى الأربعينيات، لمحطات مجاورة، كمحطة خراطة التي تقع في نفس الدائرة العرضية مع البابور وتيزي نبشار القريبة منها كذلك.

وهذه بعض المعطيات المتعلقة بدرجات الحرارة وتساقط الأمطار والثلوج.

درجات الحرارة:

حسب المعطيات الحرارية المسجلة تصنف المنطقة ضمن النطاق شبه الجاف، فحسب دراسة السيد غرزولي 1989 تصل درجة الحرارة على قمة البابور من 10° إلى 12° بينما يقدرها GAUSSEN حسب دراسة 1952 بـــ: 5° وحسب مكتب الدراسات (Techno-exporstray) سنة 1970 فإن الحرارة المسجلة على ارتفاع 1000 متر قدرت الدرجة الدنيا بـــ 0,5° والعليا بـــ 32° وعلى ارتفاع 1600م قدرت الدرجة الدنيا بـــ -1° والعليا بـــ 27°.

التساقط:

تعتبر كتلة البابور من بين المناطق الأكثر تلقيا للأمطار في الجزائر فحسب دراسة SELTZER التي تعود إلى السنة الفلاحية 1941-1942، فإن درجة التساقط بلغت على قمة البابور 2500 ملم. ويتلقى السطح الشمالي كمية أكبر من السطح الجنوبي نظرا لما يتعرض له من مؤثرات بحرية ورطوبة زائدة، ويقدر الفارق بين السفحين الشمالي و الجنوبي ما بين 200 و 300 ملم.

ويعتبر فصل الشتاء من أكثر الفصول مطرا، فحسب محطتي تكسانة و عين الكبيرة القريبتين من المنطقة تتراوح الكمية ما بين 318 ملم و 665 ملم شتاءً وصيفا ما بين 55 ملم و 30 ملم.

تساقط الثلوج:

تعد من أكثر المناطق المعروفة بتساقط الثلوج و خاصة على كتلة البابور و ما جاورها، و تصل الفترة التي تتساقط فيها إلى 5 أشهر من السنة و تبدأ في التساقط من أواخر نوفمبر إلى غاية وسط مارس حسب دراسة OUBERTY سنة 1943 و يبقى تراكم الثلوج على قمة

الجبل لمدة 150 يوما من السنة حسب مكتب الدراسات البلغاري (Techno-exporstray) سنة 1970.

ويصل سمك الثلوج إلى غاية ارتفاع 1850 متر ثلاثة أمتار حسب دراسة غرزولي 1989.

وتعد سنتي 2003 و2004 من السنوات التي تساقطت فيهما الثلوج بكميات كبيرة و هذا لم يشاهد منذ أكثر من 10 سنوات.

الحياة النباتية:

نظرا لوفرة التساقط وارتفاع الرطوبة على كتلة البابور وتبابورت، فإن الغطاء النباتي أخذ مظهرا كثيفا، حيث تعد غابة البابور من أكثر الغابات كثافة، و حسب دراسة السيد غرزولي أستاذ البيولوجيا بجامعة سطيف، و في إطار إعداد رسالة ماجستير 1989 فإنه أحصى 393 نوعا في كتلة البابور وحدها، و 525 نوعا في سلسلة البابور كلها (بابور، تبابورت، ذراع املال وتاكوشت).

وتغطي الغابة نسبة 15 % من مجمل المساحة وتتميز غابات البابور بكثافاتها التي يبلغ عدد أشجارها 100 شجرة في الهكتار الواحد وتمثل نسبة 75% من المساحة الغابية الإجمالية، تشمل أشجار الأرز، الزان، الفلين، البلوط الأخضر، الصنوبر البحري و الصفصاف.[1]

و تتركز هذه الأنواع على السفوح الشمالية و على الارتفاعات التي يزيد علوها عن 1400 مترا، و يأتي المستوى الثاني من الكثافة التي تتراوح ما بين 50 % و75 %، ثم المستوى الثالث من الكثافة التي تتراوح ما بين 25 % و 50 % وعلى مستوى قدم الجبل تنمو الأحراش بينما على السفح الجنوبي فهو قليل الكثافة.

[1] Thèse de magister, étude phyto-écologie du massif du Babor , Rabah bounare, université de Sétif, 2000, P 13

ولقد مرت بابور عبر تاريخها القديم والحديث بالأحداث التالية:

يدل وجود الآثار الرومانية بعدة مناطق بالبلدية و أهمها تلك الموجودة بمجرقي الواقعة في منطقة استراتيجية تشرف على كل المناطق الممتدة جنوب البابور و حسب شهادات المواطنين فإن مقبرة رومانية توجد أسفل هذه الآثار لها عدة مداخل.

و غير بعيد عن بابور بمسافة لا تتعدى 10 كلم، أقام أبو عبد الله الشيعي أول نواة للدولة الفاطمية، فبعد أن سمع بوضع الدولة في المغرب العربي، وفهم أن الأمير إبراهيم الثاني لا يستطيع أن يحارب على واجهتين هما صقيلية وتأزم الوضع في القيروان، قرر تجاوز مرحلة الدعوة إلى مرحلة العمل السياسي والثورة المسلحة، وقد رافق الداعي رجال من كتامة في سفر العودة ولما وصل إيكجان في منطقة القبائل الصغرى، شمال شرق مدينة سطيف استقر بها وجعل منها أرض هجرة لكل من تشيع له في افريقيا[1] والمغرب و كان ذلك 909 ميلادية وحسب قراءات بعض المؤرخين فإن تاقليعت (القلعة) الواقعة أسفل السفح الجنوبي للبابور لا يستبعد أن يكون الفاطميون اتخذوها قلعة مراقبة وتدل الآثار الموجودة بها على الطابع العمراني العربي الإسلامي لهذه القلعة الواقعة في منطقة مهيمنة مقابلة لإيكجان، بني عزيز حاليا.

وإبان العهد العثماني امتد إليها الحكم العثماني الذي تعتبر سلطته ضعيفة على هذه المناطق الجبلية المعزولة، حيث عين القائد بوعكاز بن عاشور من طرف أحمد باي كقائد على فرجيوة التي يمتد حكمها إلى غاية البابور وذلك تكريما له على وقوفه إلى جانبه في الدفاع عن مدينة قسنطينة خلال الهجوم الفرنسي الأول عليها سنة 1836، وظل قائدا على المنطقة إلى غاية 1846 حيث فصل من طرف السلطات الفرنسية.[2]

ولقد شهدت ثورات شعبية عديدة ومنها ثورة 1845 ضد الطلائع الأول التي حلت بالبابور منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر. وقد صادفت أمامها مقاومة عنيفة، فانتقمت من السكان بالقتل والحرق والتعدي كما امتدت إليها مقاومة المقراني التي اندلعت في ماي 1870 التي عمت الشرق والوسط الجزائري.[3]

(1) عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب ج2، ص 60.
(2) خنوف علي: السلطة في الأرياف الشمالية لبايلك الشرق، ص 48.
(3) Julien A. Charles : Histoire de l'Algérie contemporaine, Paris Puf, 1964, P 393.

حوادث 8 ماي 1945:

يشير المؤلف رضوان عيناد ثابت في كتابه 8 ماي 45 في الجزائر، إلى ضخامة و بشاعة الأحداث التي انطلقت صبيحة 8 ماي 45 المصادف للسوق الأسبوعية التي تقام كل ثلاثاء بسطيف.

هذه الأحداث الأليمة التي تعد إرهاصة لثورة التحرير الكبرى بشهادة جميع المختصين في شؤون السياسة وتحليل الأحداث، فبعد المواجهات الدامية التي وقعت بين المسلمين كما كانت تسميهم السلطات الفرنسية وقواتها القمعية في مدينة سطيف انتقلت بسرعة للمدن والقرى المجاورة لها، (أولاد عدوان، عموشة، بني عزيز، بابور) قتل عشرون أوروبيا وعلى رأسهم الحاكم كما يسميه الجزائريون Administrateur و المعروف باسم .Rousseau René

فبسبب هذه الهجمات القوية على أملاك المعمرين والمراكز الإدارية، تدخلت قوات الاحتلال بعنف كبير وشرعت في قتل كل من تصادف أمامها، وهذا ما دفع بالسكان إلى الفرار إلى الجبال و منها جبل البابور قصد الإفلات من البطش و القتل. و حسب ما قدمه خالد بوسيف أستاذ التاريخ في جامعة السانية في ملتقى وطني أقيم بسعيدة 1993، أن السلطات الفرنسية جندت 40 ألف جندي و ميليشيات من السلطات و الدرك و الشرطة على مستوى المدن والدواوير في المثلث الذي شهد الانتفاضة السكانية، سطيف، قالمة، خراطة وقد بلغت الطلقات المندفعة من المدفعية 800 طلقة منها 476 على مدينة سطيف وحدها و بلغ عدد الطائرات المقنبلة 101 طائرة، وظلت تقنبل لمدة 15 يوما من بداية الأحداث واشتركت معها بارجتين حربيتين: Triomphe و Duguay-Trouin استمرتا في إطلاق نيران مدفعيتهما من خليج بجاية الذي يبعد عن البابور بـــ 15 كلم فقط، و مازال كثير ممن عايشوا هذه الأحداث أحياء يحكون ما عانوه من قتل وترويع وسجن.

بابور إبان الثورة التحريرية:

عرفت مراقبة وضغطا استعماريا كبيرين نظرا لكونها أحد أهم معاقل الثورة التحريرية شمال ولاية سطيف، وتمثل الحد الفاصل بين الولايتين الثانية والثالثة حسب التقسيم الجغرافي الذي وضع في مؤتمر الصومام. وما يؤكد هذا الضغط وجود 39 مركزا متنوعا شملت كل المؤسسات العسكرية والمدنية الاستعمارية المعروفة آنذاك وهي المصالح الإدارية المختصة SAS، المكتب الثاني ومراكز الجيش الفرنسي، كمراكز المدفعية والذخيرة الحربية والتموين ونوادي الضباط ومراكز الحركة والقومية المعروفين بأحيائهم السكنية ومراكز التعذيب والتقتيل

الجماعي والمعتقلات وأبراج وحواجز المراقبة المقامة على المداخل الأساسية للمدن والتجمعات المحاطة بسياج لا يسمح بالدخول إليها إلا من تلك المداخل.

ومن أهم المراكز العسكرية التي أقيمت بالبلدية قصد خنق الثورة و محاصرتها سوق الجمعة الذي أنجز في 1955 و الذي يبعد بـــ 3 كلم عن كتلة البابور، مزود بكل الوسائل العسكرية قصد الهجوم على المجاهدين وصد هجماتهم المباغتة ومركز بوصلدوع (الشرفة) ويبعد بحوالي 6 كلم عن كتلة البابور على جهتها الجنوبية ويتركز في منطقة استراتيجية ،يقابل السفح الجنوبي للبابور وتراقب منه المناطق المجاورة.

مركز مجرقي والواقع أسفل السفح الجنوبي للبابور، حيث صار ثكنة عسكرية متقدمة أمام معاقل المجاهدين الموجودين في الجبل، و لم يتمكن من الصمود أمام هجمات المجاهدين و تحول الجنود المرابطون به إلى مركز بوصلدوع.[1]

(1) بوصفصاف عبد الكريم: حرب الجزائر ومراكز الجيش الفرنسي، مديرية المجاهدين، سطيف، الجزء الأول، ص164.

الأنشطة الاقتصادية:

أهم نشاط تتميز به البلدية هو الزراعة المعاشية ذات الطابع التقليدي من اجل ضمان الحد الأقصى من التوقعات في حدود وسائل الانتاج القديمة وفي ظل الشروط الطبيعية غير الثابتة المتغيرة دائما،[1] مع أن بعض الأنماط الحديثة بدأت تطبق فيما يخص بعض الأنشطة الزراعية كزراعة الأشجار وتربية النحل والدواجن ولولا تدهور الوضع الأمني لكانت التجربة أحسن مما هي عليه الآن. خاصة مع وفرة المياه المستخرجة من الآبار الارتوازية، والينابيع والآبار الصغيرة بـــ: 345 لتر في الثانية، حيث أن كميات هائلة منها تظل تجري حتى في فصل الصيف في اتجاه سد ايغيل آمدا بخراطة، وسد ايراقن بجيجل وقسم يتجه نحو الواد الكبير، ويقدر عدد المستثمرات الخاصة بـــ : 380 مستثمرة.

زراعة الأشجار:

يتميز مناخ المنطقة باعتدال حرارته التي لا يتعدى متوسطها السنوي: 30° و معدل التساقط بـــ 1000 ملم، حسب المصادر السابق ذكرها بالإضافة إلى الينابيع المتدفقة من سفوح البابور من مختلف جهاته، يتناسب مع زراعة الجوز و اللوز والزيتون والتين والعنب بالإضافة إلى الأنواع الجديدة التي أدخلت كالتفاح والإيجاص والخوخ وغيرها. كلها تابعة للقطاع الخاص وتتركز بالأخص في مداشر مجرقي، المشتة القديمة، بني سعيد، الجوادة، بني بزاز، لارباع، واد عفرة، سطاح السان، وتقدر المساحة التي تشغلها بـــ : 200 هكتار كما يبرز ذلك الجدول التالي:

نوع الأشجار	2000	2001	عدد الأشجار
الزيتون	5160	9460	14620
اللوز	298	155	435
الجوز	4000	/	4000
التين	5000	/	5000
المشمش	250	395	653
الإجاص	794	1585	2375
عين بقرة	/	/	986

من 2000 - 2002 أنجز 150 هكتار من طرف مصالح الغابات.[2]

---

(1) Bourdieu. Pierre : Le déracinement, édition Minuit, 1964, P19.

(2) دائرة الغابات لعين الكبيرة.

زراعة الحبوب:

تتركز زراعة الحبوب في الجزء الجنوبي من البلدية حيث أن نسبة الانحدار تخف كما أن التربة المارنية تساعد على هذا النوع من الزراعة حيث تتركز في كل من واد الداب، الضعفة، بني ملول، تالوبقت و الخضارة. تتركز على مساحات صغيرة لا تتعدى مساحة الهكتار لأكبر الملاك 20 هكتارا.

وتشمل زراعة الحبوب (القمح، الشعير والحبوب الجافة) حيث تعطي مردودا جيدا في أحسن السنوات معتمدة فقط على مياه الأمطار حيث يصل مردود الهكتار الواحد إلى ثمانية قناطير وتبقى زراعة معاشية تغطي بعض الاحتياجات الغذائية للقائمين بها، وتشغل المساحة الخاصة بزراعة الحبوب43،5 % من مجمل الأراضي الصالحة للزراعة.

نوع الحبوب	المساحة بالهكتار	الانتاج بالقنطار
القمح الصلب	960	5760
الشعير	500	4000
حبوب جافة	30	150

الخضـــــر:

يعتبر هذا النوع من الزراعة جديد في المنطقة بحيث لم يكن معروفا كما هو عليه الآن، وقد اجتهد فلاحو المنطقة و خاصة في واد عفرة الخالية من أي تواجد سكاني في ممارسة زراعة الفاصوليا و البطاطا و الطماطم وتمارس في نفس مجال زراعة الأشجار، وتقدر المساحة الخاصة بها بـــ: 74 هكتار والإنتاج بـــ : 3586 قنطار.

تربية الحيوانات:

يعتبر هذا النوع من الزراعة مكملا للزراعة المعاشية السابق ذكرها، دأب السكان على ممارستها منذ القدم و مازالوا دائبين عليه إلى الآن. فتربية الأغنام تتركز بالأخص بالمناطق التي تزرع بها زراعة الحبوب حيث تتوفر لديها مساحات الرعي، يمارسها السكان بحب و تعلق كبيرين، فأدنى عدد يمتلكه الساكن بتلك المناطق يكون في حدود 5 رؤوس و يصل أقصى عدد إلى 50 رأسا و لا يتعدى ذلك إلا في حالات نادرة، وتعرف بالنعجة الجبلية المتميزة بصغر حجمها وشكلها الكروي وديناميكيتها ويقدر عدد الرؤوس بـــ: 7140 رأسا.

أما تربية الأبقار والماعز فتتركز في الغالب في جهات من البلدية حيث تربى الأبقار بطريقة خاصة. ترسل في شكل قطعان للرعي في الجبل طيلة فصول الربيع و الصيف

والخريف. و مع دخول فصل الشتاء يؤتى بها إلى البيت تفاديا لأضرار البرد والثلج، وطيلة تواجدها يتم من حين لآخر تفقدها و عند اقتراب موعد ولادتها تترك بالبيت وتبقى لمدة حتى يكبر العجل ثم ترسل لتلتحق بالقطيع في الجبل. ومع سيطرة الجماعات المسلحة على الجبل أجبر أغلب السكان على بيع أبقارهم.

تربية النحل:

بدأ هذا النوع يعرف انتشارا واسعا بالمنطقة وبدأت تقنيات ممارسته بين السكان تعرف، نظرا لمردوديته والربح الذي يحققه حيث يصل سعر اللتر الواحد من العسل إلى 2.000,00 دج، حيث يقدر عدد الخلايا بـــ : 260 خلية منها 180 حديثة و 80 تقليدية، وقد شهدت في السنوات الأخيرة صعوبات كبيرة بسبب الجفاف الذي شهدته البلاد وخاصة سنة 2002 التي يعتبرها الفلاحون لا مثيل لها منذ أن عرفوا الحياة.

تربية الدواجن:

هي الأخرى شائعة في المنطقة حيث تنتشر المداجن في شتى أنحاء البلدية ويأتي التجار للتزود بالبيض واللحم من أنحاء الولاية كلها، ويقدر عدد المداجن بـــ : 52 مدجنة تنتج سنويا حوالي 85600 دجاجة، وقد أثر الوضع الأمني المتدهور على المربين حيث اضطروا إلى التوقف بسبب الابتزاز الذي يتعرضون له، فهم دائما كما يقولون هدفا سهلا للجماعات المسلحة التي تفرض عليهم اشتراكات إلزامية دون أي نقاش على اعتبار أنهم أغنياء.

الأنشطة الاقتصادية الأخرى:

الأشغال العمومية والخدمات، يوظف هذان القطاعان عددا معتبرا من السكان وخاصة قطاع البناء والتعليم اللذان يوظفان أكبر عدد، حيث عرف قطاع البناء انتعاشا لا بأس به وذلك لعدد المنجزات التي أنجزت مؤخرا ومن بينها السكنات الاجتماعية والمؤسسات التربوية، بينما الصناعة فلا وجود لها بالبلدية تماما وما العدد المشار إليه في الإحصائيات والمقدرة بـــ 151 عامل فكلهم يعملون خارج البلدية في المؤسسات المجاورة بعين الكبيرة وغيرها من المؤسسات الوطنية.

الزوايا والجوامع:

الملاحظ عن المنطقة بصفة عامة أنها تفتقر إلى وجود هذا النوع من المؤسسات التعليمية والتربوية، ومنذ قرنين عبر الزمن لم نسمع إلا بوجود زاويتين؛ إحداها زاوية الشيخ الفروم والأخرى زاوية الشيخ بلميهوب، وهي في الحقيقة زوايا ذات شهرة محلية لم يبلغ أثرها إلى مختلف أنحاء الوطن الأخرى.

فزاوية الشيخ الفروم المتواجدة بقرية لرباع والتي أسسها الشيخ محمد الفروم، الذي درس وتعلم بدوره بزاوية الشيخ الحملاوي بالتلاغمة، تعد من أهم المعالم العلمية بالمنطقة فقد تخرج منها العديد من حفظة القرآن الكريم. تتوفر على نظام شبيه بنظام الزوايا في الجزائر، حيث أنه في الغالب لا يتجاوز عدد الدفعات عن 20 فردا متعلما يأتون من المناطق المجاورة، من مداشر بني زنداي، بني بزاز ولعلام، و بابور ... يأتون للتعلم والبعيدون منهم يبيتون بالزاوية في ظروف عادية بينما القريبون وأبناء الدشرة يدرسون ثم يلتحقون ببيوتهم.

ويحض الشيخ الفروم باحترام كبير لدى طلبته(لقدادشة) كما يسمون، وظلت زاويته تعمل إلى غاية 1958. أين اعتبرت منطقة عسكرية محرمة من طرف الإدارة الاستعمارية، وفرض على سكان لرباع الرحيل الجماعي.

وعادت إلى مزاولة نشاطها في سنة 1971 على يد الشيخ عبد الرحمن الذي يقوم الآن بدور إمام مسجد بعين الكبيرة بحيث تقوم بتدريس أبناء الدشرة دون أي رعاية فيما يخص المبيت والإطعام، فنظام الزاوية تم التخلي عنه.

وقد تخرج على يده حوالي 14 من حفظة القرآن، وبعد أن هاجر إلى الجزائر العاصمة مع بداية السبعينات توقف دور الزاوية نهائيا ولم يعد يحفظ عنها إلا اسم زاوية الشيخ الفروم.أما زاوية بلميهوب فلم احصل على معلومات كثيرة عنها، وقيل أن مؤسسها لم يمكث طويلا ببني بزاز، حيث انتقل إلى قسنطينة. فالزوايا مؤسسات أنشأت لعبادة الله تعالى وتحفيظ القرآن الكريم وتعليم الدين ونشر القيم والفضائل الإسلامية. وهذه في الحقيقة مدارس للتربية وتهيئة النشء للمعاهد الإسلامية العالية بمصر، تونس والمغرب.[1]

ولقد ظلت زاوية الشيخ الفروم مركز إشعاع فكري وعلمي في المنطقة، تعلم النشء من الذكور، كما تؤدي دورا اجتماعيا و ذلــك بإقامة الحفلات الدينية و إحياء المناسبات المختلفــة .

[1] محمد نسيب: زوايا العلم والقرآن، ص14.

(عاشوراء، محرم، المولد النبوي الشريف، عيد الأضحى، 17 رمضان، ليلة القدر) يجري التسبيح جماعي ويأتي في تلك المناسبات كل أفراد الدشرة لابسين أجمل ملابسهم ومتحلين ببرانسهم ليسبحوا ويذكروا الله ويحيوا مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ويقام حفل عشاء يساهم كل فرد فيه حسب إمكانياته المادية، ويعيش الجميع ليلة هادئة هنيئة ثم يفترقون فيما بعد لاستكمال حياتهم العادية.

كما يقوم شيخ الزاوية بدور سياسي يتمثل في الفصل في القضايا العالقة بين الأفراد كتقسيم الميراث بين ورثة الميت، والقصاص في حالة الخصومات ورد المظالم إلى أصحابها كالضرب والجرح.. ومختلف أشكال القصاص، (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب) صدق الله العظيم.

ويقض في مختلف القضايا كالزواج والطلاق التي تطرح أمام الشيخ وفق مقتضيات الشرع الإسلامي، كما تراعى بعض العادات الحسنة السائدة، ما عدا ذلك لا يذكر أي نشاط لزوايا أخرى بالمنطقة.

الجوامع:

في كل دشرة يوجد جامع لتدريس القرآن الكريم وأشهرها جامع أولاد سي قاسم الذي تخرج منه الكثيرون من حفظة القرآن الكريم.

والجامع مبنى يتوسط الدشرة في أغلب الأحيان أو يكون في منطقة متمركزة على سح المنحدر الذي تقع عليه الدشرة ضمن المنطقة الجبلية المعروفة بمنحدراتها.والشيخ يكون من أبناء الدشرة أو يأتي به من منطقة أخرى ليدرس القداشة القرآن الكريم.

ونظام التعليم صارم جدا فكل من يغفل أو يظهر عنه سوء الحفظ يؤدب بالعصا ويصل به الأمرإلى الضرب المبرح على الرجلين سواء من طرف الشيخ أو متصرف من أحد القداشة المعروف بصرامته وكبر سنه.

دور جبل البابور والمكانة المقدسة التي يحتلها في نفوس سكان المنطقة:

جبل بابور أو الجبل الأزرق كما يسميه البعض، لأن المظهر الذي يظهر به من بعيد يميل إلى الزرقة، تعتبره الغالبية على جبل البرهان و تعني في مفهوم عامة الناس القداسة والقدرة على خلق المعجزات الخارقة و تحقيق الأمنيات البعيدة النيل، ولهذا يحض بمكانة

عظمى، وفي حالات الشدة والعسر يقسم به حتى (لبابرية) والقسم بالشيء يعني تقديسه ووضعه في المكانة العالية.

فالقسم في المفهوم الإسلامي لا يكون إلا بالله كما جاء في الحديث الشريف " **من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت**".

ويعتبر علماء الشريعة أن القسم بغير الله من قبيل الشرك، إلا أن تعود الناس على هذا الأمر لجهلهم فهم لا يعيرون اهتماما لما هم واقعون فيه، بينما فئة الشباب المتعلم فهي بعيدة عن هذه المفاهيم التي ترى أنها ليست من الدين الصحيح ومن أشكال القسم التي ينطق بها الناس (حق جبل بابور أو حق الجبل الأزرق)، وكثير من أصحاب الحوائج الذين تضيق بهم الدنيا ولا يجدون ملجأ ولا سبيلا لتحقيق حاجاتهم يتوجهون إليه بالدعاء يرجونه ويعتبرونه واسطة بينهم وبين الله، وحينما تريد أن تستفسر عن هذا الأمر، يجيبونك أنه جبل البرهان وأنه لا يخيب من يعتصم به، فكل من اختبأ فيه فهو محمي لا يمسه سوء، فالمجاهدون أثناء الثورة التحريرية الكبرى كان ملجأهم وحاميهم من بطش الاستعمار ومن آلته الجهنمية ولم يتمكن الجيش الفرنسي من دخوله ولو مرة واحدة.

والجماعات المسلحة الخارجة عن الدولة اليوم وجدت فيه حماية بحيث لم يتمكن الجيش من دخوله كذلك إلا في سنة 2003. وهكذا ظل طول التاريخ يحمي كل من يهرب إليه فالمظلوم الهارب إليه هو في أمن وحماية، كما انه يمد السكان المجاورين له بما يحتاجون من مصادر العيش وهي الماء، والحطب، والخشب، والكلأ لحيواناتهم، فالمحاريث الخشبية والأعمدة التي تحمل أسقف المنازل تنزع من أشجار الأرز والبيقنون وكذلك الأواني المنزلية المختلفة ووسائل النسيج وما تأثث به المنازل من خزائن وطاولات وغيرها، كما أنه مصدر الصيد لما يتوفر عليه من أعداد هائلة من الأرانب وطيور الحجل وغيرها، وفيه كذلك ترعى قطعان الأبقار، ويعتبر كذلك مصدرا للينابيع العذبة المتدفقة بالمياه التي هي مصدر رزق السكان، حيث تسمح لهم بسقي مزروعاتهم المختلفة من أشجار مثمرة وخضر وغيرها وكل هذه الخدمات التي يقدمها جعلته يتبوأ هذه المكانة العالية في نفوس السكان، ولتجسيد هذا التقديس دأبت الأجيال على إقامة زردة سنوية تجمع أعراش ومداشر المنطقة فيما يشبه ملتقى سنوي يتوج نشاط السنة، كما تطرح فيها القضايا الهامة لتجد لها حلا من طرف العقلاء.

زردة آزقن أمقران على قمة البابور:

هي زردة تشبه أنواع الزردات الأخرى التي تقام في شتى أنحاء الوطن، تقام كل سنة في شهر ماي وذلك عندما تبدأ درجة الحرارة في الارتفاع شيئا ما، ومع أنها توقفت منذ حوالي 21 سنة أي قبل تدهور الوضع الأمني، وذلك منذ سنة 1982، إلا أن تلك الصورة الجميلة لا يمكن تعويضها اليوم مهما كانت صور الإبداع للأشكال والأنماط الثقافية، كم يقول العديد من الذين قابلناهم وهم يتحسرون على ما فات.

نعود إلى الكلام عن هذه الزردة التي تقام بقمة الجبل، على منبسط عاري من الأشجار ومغطى بالحشائش ومحاط بغابة كثيفة من أشجار البقنون، الزان، الصفصاف، تومرت، والدردار، والبلوط وغيرها.

تشترك فيها القبائل المتكلمة بالقبائلية بالأخص من مداشر : مجرقي، لجوادة، بني ملول، الشرفة، تالوبقت ... تبدأ عملية جمع الأموال الخاصة بشراء رؤوس الأغنام والأبقار والماعز، والدقيق والزبدة وبقية المستلزمات الخاصة بتحضير الكلة الشعبية الكسكسي، بشهر قبل بداية الزردة تكلف مجموعة من الأفراد على مستوى كل دشرة وهناك من يتبرع بما لديه من: أغنام، دقيق، زبدة، ... وهناك من يقدم وعدة وعد بها في الزردة السابقة بعد أن قضيت حاجته ورزق بما كان يتمناه. تجمع هذه التبرعات والوعدات ثم يتم الاتصال بين مجموعات المداشر لتقدير الاحتياجات، فإن وجدت أنها كافية يتم التوقف عن عملية الجمع ويعلن بعد ذلك في أسواق المنطقة عن تاريخ انعقاد الزردة. ويبدأ من يوم الثلاثاء حيث تشرع المجموعات في نقل المستلزمات من حيوانات وغيرها بوسائل النقل بعد أن شقت طريق تصل إلى القمة عبر تعرجات ضيقة، وقد كانت تنقل من قبل شق الطريق على الأحصنة والأحمرة بما فيه الماء حيث لا توجد ينابيع بالقمة.

ثم بعد أن يشرع في ذبح الذبائح من الأغنام والأبقار والماعز، تسلخ وتقطع إلى قطع، بينما تترك الأعضاء الداخلية لتباع ويحتفظ بمبلغ بيعها في الخزينة للسنة المقبلة، ثم يحضر عشاء الليلة الأولى، ويبيت الحاضرون من سكان المداشر والضيوف الذين يأتون من شتى أنحاء البلاد الليلة الأولى على التسبيح من دون غناء أو غيرها من أشكال الحضرة والتهويل والتطبيل.

ويتميز المنظمون بوضع شارة على اليد ، وينام الناس في العراء دون غطاء، بينما القريبون يلتحقون ببيوتهم ليعودوا مع طلوع الفجر.

ومن القضايا الهامة التي تجرى في الزردة أنه تقام جلسة يديرها شيخ كبير، ويحيط به مجموعة من الشيوخ يقيمون حلقة يسبحون ويذكرون اسم الله، وأغلبهم من حفظة القرآن الكريم والصالحين والبوهالية* . يأتيهم أصحاب القضايا العامة والشخصية لعرضها عليهم قصد إيجاد حل في إطار التراضي بما يعيد العلاقات الإنسانية التي انقطعت نتيجة سبب من الأسباب إلى وضعها الطبيعي.

كأن تكون قضية بين عرشين استشكلت حول منبع مائي أو قطعة أرض أو طريق أو غيرها من القضايا، ويحضر أسياد كلا العرشين أمام الملأ ويعلنون تصالحهم وعودة العلاقات السلمية بينهم.

وتعرض القضايا الشخصية كالمشاكل بين الأزواج والأسر المتصاهرة، وتعرض قضايا الزواج الجديدة كذلك، والخصومات بين الأفراد فيحضروا ويعلنوا تصالحهم أمام الناس و بعد أسبوع يمر الذباح على المداشر وكدليل على تصالح المتخاصمين فيشتركان في ذبيحة واحدة وتعود الحياة الطبيعية.

وبعد ثلاثة أيام يفترق الجمع على أمل اللقاء في العام القادم، ويوزع ما تبقى من لحم ودقيق وأغراض أخرى على الفقراء والمساكين، وفي يوم الجمعة بعد منتصف النهار يفترق الجميع عائدين إلى منازلهم.

المقابر والتحولات التي شهدتها:

تعتبر المقابر مكان دفن الموتى من أهم الرموز المحترمة والمقدسة من طرف الناس، لأن الموت حقيقة وحتمية يصير إليها كل الناس، وإذا حاولنا إعطاء صورة عن المقابر منذ أكثر من ثلاثين عاما إلى الآن نلاحظ حدوث تحولات في الشكل و في الممارسات الاعتقادية المرتبطة بها، فهذه المقابر الموجودة في كل دشرة تقريبا تسمى باسم ولي صالح سيدي فلان، ويحض ذكره باحترام وتقديس ويحيطه الناس بمجموعة من الكرامات والمعجزات التي يعجز الناس العاديين عن القيام بها، وذلك بسبب التقوى والصفاء الروحي الذي جعله يرقى إلى مستوى الصالحين الذين يستجاب لدعائهم من الله سبحانه وتعالى، فمن يأتيهم قاصدا صادقا في قصده يلبى طلبه ويستجاب لحاجته كالرزق بالأولاد للعقيم، والشفاء للمريض، والغنى للفقير، والعودة إلى البيت للغائب المنقطع عنه، والنصر على الأعداء للمظلوم.

* البوهالي: هو الرجل الصالح الذي يتعامل مع الناس من دون حيلة أو حسابات مصلحية، ودون مكر أو دهاء، وفي الغالب لا يكون متعلما.

فهؤلاء الأولياء يؤدون وظيفة سامية في نظر الناس أو هم بمثابة وسطاء بين الله والعباد، ومع مرور الزمن رسخت في الأذهان قدسيتهم وعلو منزلتهم التي لا نقاش فيها، فمن لا يحترم مقاماتهم ولا يثني على أعمالهم ويتعرض لهم بالسب وبشك في صلاحهم ويكذب كراماتهم وما حققوا من خير للناس، فهو معرض لأن يمسه الشر وينزل به غضب الله، تماشيا مع الحديث القدسي "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب" ولذلك يتجنب الناس من لا يحترم هؤلاء الأولياء، ولكي يبقى ذكرهم خالدا بين الناس يقام لهم مقام عند وفاتهم ثم يشرع في دفن الموتى من أبناء الدشرة حول هذا المقام، ويتحول إلى مقبرة تحمل سيدي جعفر، سيدي محسن، ... كما يحض هذا المقام بالزيارات يأتيه الزائرون في مختلف المناسبات للترحم على موتاهم واضعين ما أتيح لهم من الأغراض: بخور، شموع، إزارات، وأكلات ودراهم داخل المقام للتأكيد على الحب والولاء لهذا الولي الصالح.

إن الكثير من الممارسات السابقة زالت كلها تقريبا، فحتى بعض المقامات لم يعد الناس يدفنون موتاهم فيها كمحسن الواقع بدشرة بني ملول الظهارة، فلأن المقبرة تقع في منخفض وعر لا تصله الطريق الخاصة بالسيارات، غيرت إلى موقع قريب منها بمحاذاة الطريق، وصارت تحمل اسما جديدا هو أقالوس، لا يوجد بها أي مقام أو جامع، والزيارات صارت قليلة جدا ومقتصرة على الترحم على الموتى فقط دون أي قصد آخر كالتبرك و طلب أمر معين، و لم تعد الأغراض التي تعودت النسوة على وضعها من شموع وبخور ودراهم وغيرها توضع، فهذه التحولات تؤكد على تحول عميق في الممارسات الدينية لسكان هذه المناطق، وفقدت هذه المقامات قداستها وتأثيرها ولم يعد اسم هؤلاء الأولياء يذكر إلا بشكل عارض، ومن باب التذكير الذي ما زال بعض الكبار يبدونه من حين إلى آخر، وهو ما أدى إلى تعطيل الوظائف الاجتماعية لهذه الرموز الدينية كالتجمع والتجمهر وتنظيم الوزائع، واقتصرت الزيارات على زيارات محتشمة لبعض النسوة من ذوي الحاجات الملحة.

وقبور مقبرة محسن نالت منها ظروف الطبيعة من سيول وانجرا فات وليس هناك من يقوم على حفظها، و المقام المبني بالحجر والمسقف بالديس لم يعد له أثر منذ عشرات السنين ولم يدفع ذلك أحد على إعادة بنائه، وبالتالي ضاع رمز المقام محسن، ومادام أن الرمز قد غاب فإن الوظيفة التي ظل يؤديها قد غابت تماما، ومادام أن الكبار يئسوا من إحياء هذه الرموز فإن الشباب ليست لديهم أية رغبة في ذلك، بل أن منهم من لا يرى ضرورة دينية وشرعية لبناء هذه المقامات وزيارتها واحترام أسماء أوليائها الصالحين، فهم لا يمثلون بالنسبة لهؤلاء الشباب أية

مرجعية ولا يتمتعون بالقوة الروحية التي تجعلهم محل احترام بل الأمر يرونه من قبيل الشرك بالله ومن الضلال عن الدين.

الفرق الفلكلورية:

من أشهر الفرق الفلكلورية الموجودة بالمنطقة والتي تحيي أفراح الناس في الأعراس والمناسبات السارة هي فرقة بني سعيد التي كانت إلى غاية الثمانينات فرقة متكاملة من الذين يقومون بالعزف على الزرنة ويضربون على الدف (الطبلة) إلى البراح.

تعدت شهرة منطقة البابور إلى المناطق المجاورة بعموشة، تيزي نبشار، بني عزيز، عين الكبيرة، تتشكل من 4 أفراد، اثنان يضربان على الزرنة وواحد على الطبلة، والآخر براح يقوم بالتبريحات في العرس، يتزين أفراد الفرقة بالزي البدوي المعروف بالبرنوس الأبيض والعمامة الصفراء المسماة بالكشطة، لا تتأخر كل أسر معنية بتزويج أحد أبنائها أو ختان أحد أطفالها عن استدعائها لحفلة ساهرة تحت ضوء القمر أو ضوء المصابيح التي تعمل بالزيت وبعد أن وصلت الكهرباء إلى المنطقة صارت الحفلات تتم تحت ضوئها.

يجتمع الرجال في جهة والنساء والأطفال الصغار في جهة مقابلة تبدأ الفرقة في استعراض مقاطع من مختلف الأغاني المعروفة من دون ترديد للكلمات أو أي غناء، وتكتفي بنغمات الزرنة ودقات الطبل، تستمر السهرة من نهاية العشاء إلى ما بعد منتصف الليل، تتخللها بعض التوقفات الصغيرة من أجل الاستراحة والسماع للبراح بتبريحه الذي يشيد فيها باسم شخص معين مرددا مثلا ــ هذه عشرة ألاف في خاطر فلان وفلان ــ ثم تعود الفرقة للعزف.

والمبلغ المجموع من التبريحات يدخل في تسديد جزء من حقوق الفرقة، وبقدر ما يكون العرس كبيرا والحاضرون فيه أجواد وأسخياء في التبريح كلما كانت الأموال التي تجمعها الفرقة كبيرة، ويتخللها في بعض الأحيان السمر والتنكيت فالبراح لا يكتفي بالتبريح فقط، وإنما لا يغفل هذا الجانب خاصة إذا كان شخصية مؤثرة ومسموعة لدى الناس، مثل الشيخ عويشر رحمه الله، وبعد إكمال السهرة ينصرف الجميع وينصرف أفراد الفرقة على أمل اللقاء في موعد آخر.

الشيخ عويشر أحد أهم رجال الونس*:

توفي منذ أكثر من 15 سنة عن عمر 82 سنة ورغم تقدم سنه إلا أنه حافظ على الدور الاجتماعي والثقافي الذي ظل يشعر أنه يؤديه كواجب اجتماعي تفرضه مقتضيات الحياة وحاجة الناس إلى الأنس والاجتماع فيما بينهم، تحقيقا لقانون الاجتماع البشري وهو أن الإنسان اجتماعي ومدني بطبعه، فالشيخ عويشر وهي كلمة مصغرة لاسمه الصحيح عاشور لضعف جسمه، أطلق عليه الناس تسمية عويشر ، يحسن إدارة الحديث وسرد القصص والحوادث الاجتماعية فيعطيها طابع التشويق ويترك سامعه ينجذب إليه لما يجد في كلامه من إحساس في التعبير عن الواقع المعيش بشكل دقيق وصحيح فيقرب إلى الأذهان والتصورات ما قد يخفى ولا يتجلى.

فحديثه عن بيت الرجال مثلا يقرنه بحادثة من الحوادث التي وقعت فعليا ويبرهن للناس أن بيت الرجال أي الأسرة التي تضم عددا من رجال ضمنها لا يمكن أن تذل أو ينال منها المعتدون والسراق وقطاع الطرق والجماعات الخارجية عند العرف الاجتماعي، ومن أشهر الحوادث التي يعرفها الناس في المنطقة ويتداو لونها في أحاديثهم، جماعة بابور وهي عصابة مختصة في السرقة والنهب، تقوم بهذه الأعمال بطريقة العصابات المنظمة متحدية المجتمع الذي ينكر السرقة وكذلك السلطة الاستعمارية التي ظلت تطارد أفراد هذه العصابة.

ويشير الجميع إلى قوة هذه الجماعة التي إذا قصدت منزلا أو أي أحد فما عليه إلا أن يقاوم حتى الموت أو يستسلم، وكان من ضحاياها مالا يعد ولا يحصى، ويروى في إحدى الليالي أنها أخذت درسا من إحدى الأسر التي يشار إليها ببيت الرجال، فبمجرد أن اقترب قائد المجموعة من البيت حتى تلقى رمية قاتلة بالرصاص، فرجع بقية أفراد العصابة هاربين تاركين وراءهم قائدهم المقتول، بحيث فصل رأسه عن جسده و وضع في العمارة، فرجع حماره حاملا الرأس دون الجسد، و يقال أن أفراد هذه العصابة شعروا بالخطر فقرروا عدم الذهاب إلى أن لقي رئيسهم حتفه، فهذا هو جزاء من يريد أن يتحدى بيت الرجال.

ويحكى كذلك عن الشيخ عويشر قدرته على إثارة الناس في الأعراس وخلق جو من المرح في أوساطهم ففي إحدى المرات بينما امرأة شابة ترقص في العرس أعجبه رقصها وشبابها، فلما بدأ في التبريح قال كلمة أضحكت الكثيرين وأزعجت أقارب تلك المرأة الشابة، حيث قال"لو كان لي

* الونس: كلمة عامية يقصد بها الأنس من المؤانسة أي شغل الناس بالحديث الجذاب المؤثر قصد تجاوز الظروف الصعبة وتمضية الوقت كما يقولون.

عمر جديد فأتزوج مع زكية"، فهو في هذا الموقف تحدى التقاليد التي لاتسمي المرأة باسمها أمام جمع من الرجال والنساء، وتغنى بجمال وشباب المرأة، وأضحك الناس في موقف ضحك وسهر وفرح.

المرأة الفحلة هي التي تكمل الرجل:

ومما يحكيه عن هذا النوع من النساء التي تكمل رجلها وتغطي نقصه في الغنى والذكاء، وتنقذ سمعته وتظهر جوده وكرمه رغم قلة ماله، ففي إحدى المرات قصدت مجموعة من الضيوف من عابري السبيل بيت رجل اشتهر بجوده وكرمه، وصادف أن تلك السنة تميزت بقحطها وقلة غلاتها فلا يوجد في البيت حتى ما يحفظ به سمعته ويؤكد كرمه فما إن نزل الضيوف بالبيت حتى وجد نفسه محرجا حرجا شديدا.

فدخل على زوجته يخبرها بالأمر، فأجابته أنها ستتصرف وستجد الحل وترفع له رأسه، فأخذت تجمع ما بقي من القمح وحضرته بشكل سريع وأعدت الفطير مع الدجاج، والرجل مع الضيوف لا يدري على ماذا يكرم ضيوفه، فحينما نادته زوجته لأخذ العشاء نهض وهو يكاد يسقط على الأرض من شدة الاضطراب فإذا به يجد الأمر على أحسن ما يرام وأن العشاء في مستوى الضيوف الكرام، فتعشى هؤلاء ثم انصرفوا إلى شأنهم، فعاد إلى زوجته وهو جد مسرور من حسن تصرفها وتدبيرها لهذا الأمر.

فرد عليها قائلا: " اليوم قررت أن أعطيك البندقية و البرنوس اللذان أملكهما وهما رمزا للرجولة" معبرا لها عن تصرفها الرجولي وتؤكد هذه القصة قيمة المرأة الجادة الحازمة التي تفوق في بعض الأحيان بعض الرجال.

الشيخ عويشر لم يخلفه أحد:

بعد وفاة الشيخ عويشر سنة 1988 لم يخلفه أحد ويتوب عنه في أداء هذا الدور الاجتماعي والثقافي الهام، فمحدثو اليوم من الشباب أو الشيوخ لم تتعد شهرتهم حدود مداشرهم أو بالأحرى مجموعة لا يتجاوز أفرادها العشرات، وهذا ما يعكس الفقر الثقافي الذي أصيب به مجتمع البابور، فالناس في أمس الحاجة إلى أن يجتمعوا إلى من يحدثهم ببساطة وطرافة حديث الشيخ عويشر الذي يصور الواقع في عبارات لطيفة ومشاهد هادفة معبرة عن حقيقة الحياة، ونلتمس هذا الفقدان لدى من عايشوه الذين يؤكدون انه لا يمكن أن يولد مثيل الشيخ عويشر في المنطقة ويؤدي وظيفته الاجتماعية.

اللهجة القبائلية تمثل خصوصية ثقافية:

تتموقع منطقة البابور بين القبائل الكبرى التي تنتهي حدودها عند خراطة التابعة لولاية بجاية والتي يتكلم سكانها بلهجة تختلف في كثير من ألفاظها لهجة سكان البابور، وهذا من ناحية الغرب، أما من ناحية الشرق فإن هذه اللهجة كما هو مبين على الخريطة تنتهي عند سفوح البابور الغربية بدء من بني بزاز لجوادة بني سعيد ثم الضعفة والشرفة لتتصل بمحيط بلديات عموشة وتيزي نبشار وواد البارد التي يشترك سكانها مع مداشر البابور المذكورة في نفس اللهجة و إذا تساءلنا عن سر هذا التواجد لهذه اللهجة في هذا المحيط وعن الأسباب التاريخية التي جعلتها تتواجد بين منطقتين إحداها تتكلم الأمازيغية وأخرى تتكلم العربية، بالرغم من أنها تاريخيا كلها قبائل أمازيغية، كما تدل على ذلك أسماء الأمكنة التي تعد مستندا أساسيا يستند إليه في دراسة التاريخ الثقافي[1] فتازرورت كلمة امازيغية تطلق على أحد المداشر الواقعة شرق مقر بلدية بابور سكانها لا يتكلمون القائلية إطلاقا، و دشرة أولاد سالم المتجاورة مع بني بزاز سكانها لا يتكلمون القبائلية كذلك بالرغم من أنهم يفهمونها جيدا، وبني سعيد يتكلمون القبائلية وبلكنة تختلف نوعا ما عن بقية السكان رغم أنهم يتوسطون المداشر الناطقة بالقبائلية.

أيعود سبب توقف القبائلية عند هذه الحدود لدور الفاطميين الذين أقاموا دولتهم غير بعيد عن البابور؟ أم يعود إلى أن قبائل البابور وفدوا من منطقة الشاوية ؟ وهناك تشابه كثير في الألقاب لحراكتة أولاد سالم، لأن لهجتهم أقرب إلى الشاوية منها إلى الأمازيغية التي يتكلم بها سكان القبائل الكبرى، والخريطة الموالية توضح التوزيع اللغوي عبر البلدية.

(1) Bulletin des sciences géographiques n°5 avril 2000-P4.

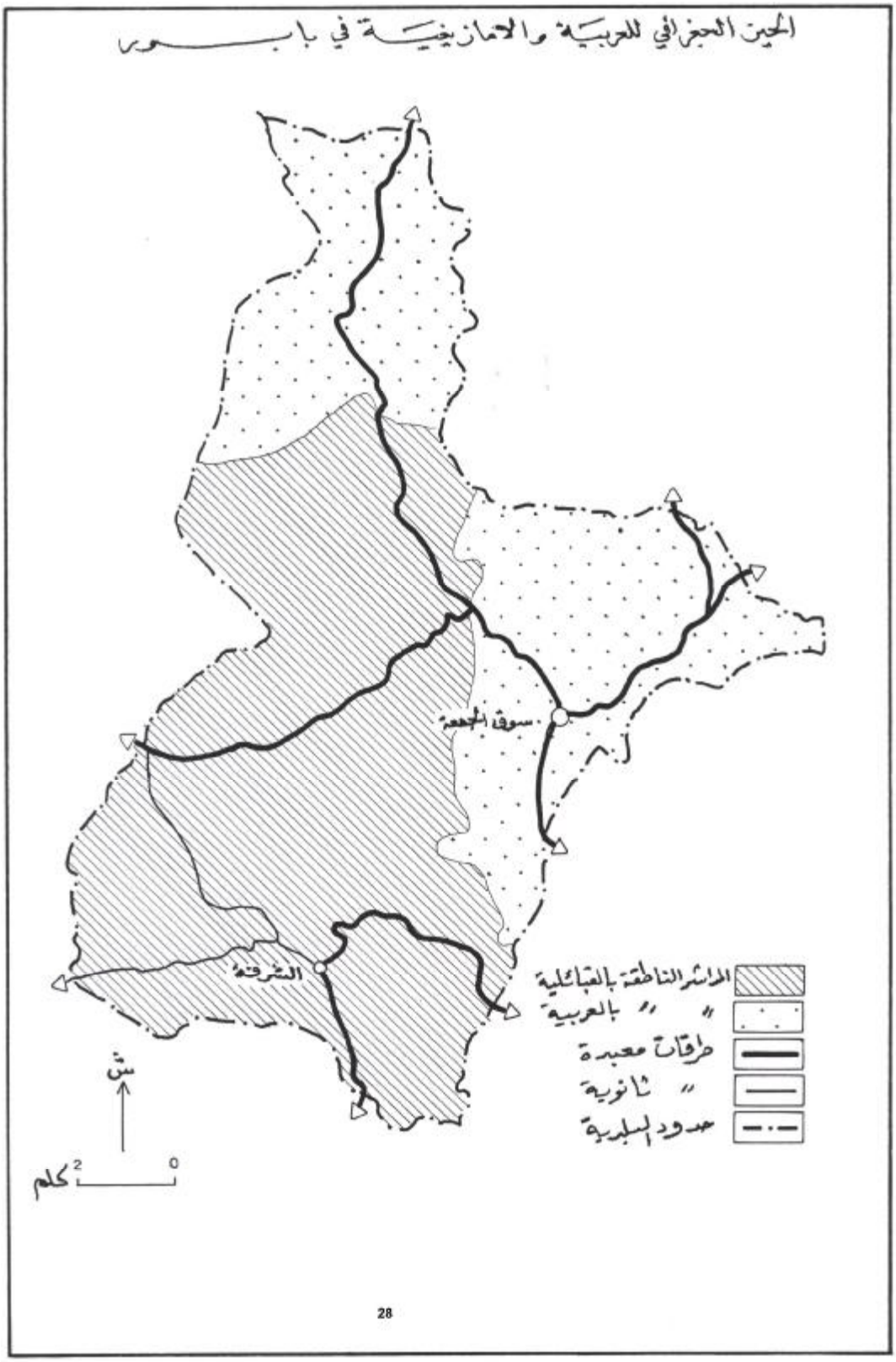
الحيز المجزأ في العربية والامازيغية في بابور
سوق الجمعة
الشرقة
الدشر الناطقة بالقبائلية
" " بالعربية
طرقات معبدة
" ثانوية
حدود البلدية
ش
كلم
2
0
28

وهذه بعض الكلمات كأمثلة:

قبائلية بابور	أمازيغية القبائل الكبرى
إتش	أتش
قيم	قيم
أكر	اقموش
أوقير	ألحو
أطس	أطس
يروح	يروح
يزمر	يزمر
يقرا	أذغير
يرول	يرول
تبخر	إسفعد
إولاد	وغالد
يتاطسا	أيذس
يهذر	يهذر
ألحم	إقرفد

فمن أصل 14 كلمة تتشابه 7 منها نطقا ومن حيث عدد الأصوات المنطوقة، بينما 7 الأخرى فهي تختلف نطقا ومن حيث عدد الوحدات الوتية.

فإذا أخذنا يقرا. وإذايغر: نجدهما تشتركان في الراء في آخر الكلمتين، وجاءت الياء في الثانية مسبوقة بالألف والذال.

وإذا أخذنا أولاد و وغالد: نجدهما تشتركان في الألف والدال بينما النطق مختلف تماما.

مداشر بلدية بابور:

01-	واد عفرة	15-	تاتوبالت
02-	لرباع	16-	واد الجايزي
03-	بني بزاز	17-	أولاد بادي
04-	لجوادة	18-	بني ملول لقبالة
05-	أولاد مرزوق	19-	أولاد مشيش
06-	تالة اجرقان	20-	الضعفة
07-	بوحجر	21-	تالوبقت
08-	قطيطة	22-	اولاد سعيد
09-	أولاد بوشنين	23-	بني ملول الظهارة
10-	أولاد جاب الله	24-	أولاد يحي
11-	تازروت	25-	سطاح السان
12-	لحراكتة	26-	مجرقي
13-	تالة اكفي	27-	تاقليعت
14-	الماء الفايح	28-	لخضارة

تجمعات حضرية:

32- الشرفة

34- سوق الجمعة

ملاحظة: هذا التقسيم مأخوذ عن الإحصاء العام للسكن والسكان لسنة 1998.

الخريطة الموالية توضح موقع هذه المداشر والتجمعات الحضرية.

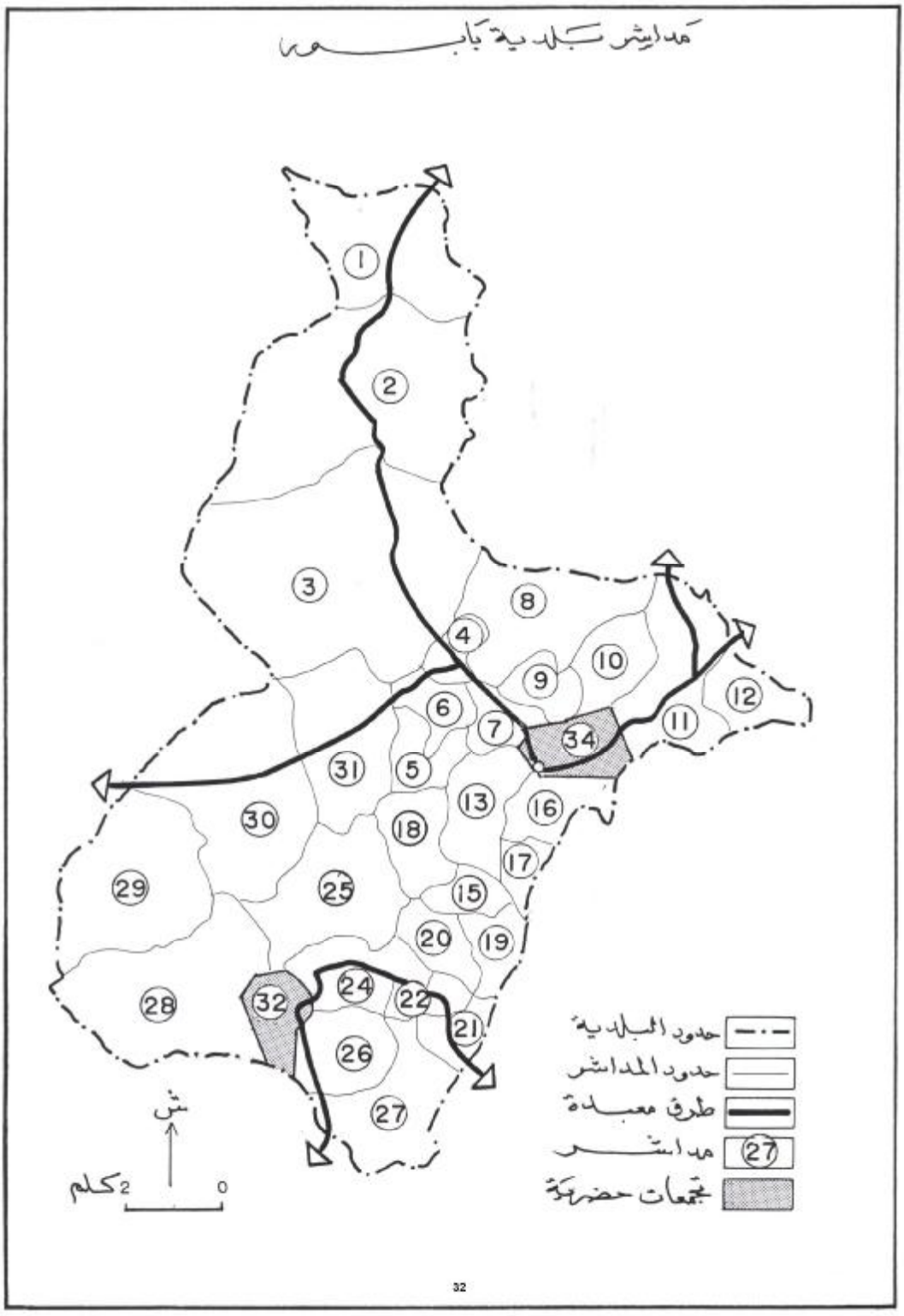
مداشر بلدية بابور
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
15
16
17
18
19
20
21
22
24
25
26
27
28
29
30
31
32
34
حدود البلدية
حدود المداشر
طرق معبدة
مداشر
تجمعات حضرية
شمال
0
2 كلم
32

الإرهاب يحدث اللاإستقرار في المنطقة :

بحكم الطابع الجبلي الصعب والغابي الكثيف لمنطقة البابور واتصالها بسلسلة القبائل الكبرى من الغرب وجبال جيجل من الشرق ، وانغلاقها شبه التام من الجهة الشمالية المطلة على البحر . فالطريق الرابط بينها وبين إيراقن والآخر مع زيامة لا تمثل سوى طرق بسيطة وغير صالحة لحركة تنقل السيارات كما ينبغي ،وهذا ما أعطى المناعة التامة لهذه الجماعات في منطقة البابور. والعارفون بخصائص المنطقة وخاصة كتلة البابور يقولون عنها، أن المعتصم بها يجد نفسه في أمن تام نظرا لكثافة الغابة التي تضفي ظلاما دائما وحتى في وضح النهار على من هو بداخلها.

بالإضافة إلى المغارات والكهوف التي كانت تمثل مأوى لجيش التحرير إبان الحرب التحريرية الكبرى.

ويمكن أن نظيف عاملا آخر ساعدت به الدولة استقرار هذه الجماعات بالمنطقة هو قيامها بانتزاع السلاح من السكان بحجة التخوف من تدهور الوضع الأمني بعد توقيف المسار الانتخابي لانتخابات 1991. وظنت أن يتعاطف الذين انتخبوا على الجبهة الإسلامية مع هذه الجماعات، وبالأخص سكان الأرياف الذين صوتوا في غالبيتهم مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ومكنوا مرشحيها على مستوى البلدية والبرلمان من الفوز خلال انتخابات 1990 و 1991 و حتى البلدية و البرلمانية. هذه التساؤلات وغيرها كثيرة صارت تطرح بحدة، وبعد أن قررت المؤسسة العسكرية توقيف المسار الانتخابي واتخاذ موقف المواجهة العنيفة مع الجبهة.

وتأسست لجنة إنقاذ الجزائر التي حثت المجتمع المدني على التحرك واعتراض سبيل الفيس ومنعه من الحكم، ذلك بسبب كما يقول الجنرال خالد نزار: « ممثلي الأحزاب و الشخصيات التي تأتي إلينا بأعداد كبيرة لتعبر عن حيرتها الشديدة.»[1]

« لهذا صار اتخاذ قرار توقيف المسار الانتخابي إجراء ضروريا لإنقاذ الديمقراطية الناشئة والأمن العام والدولة الوطنية[2] واتخذ قرار توقيف المسار الانتخابي وعدم المرور إلى الـــدور

(1) مذكرات خالد نزار : مطبعة الشهاب، ص 234.
(2) نفس المرجع : ص 234.

الثاني في الأيام الأولى التي تلت الدور الأول. وكانت الفكرة حمل الرئيس وإقناعه بالاستقالة»[1] هذا على الصعيد السياسي الذي يتلخص في صراع بين أطراف على الحكم، أما على الصعيد الفكري و الايديوليوجي فقد ظهرت من قبل التيارات الفكرية للحركة الإسلامية الشبابية التي تبحث عن الهوية في التراث الإسلامي. فالفكر الإسلامي في حقبتي السبعينات و الثمانينات عبر عن خصوصية ومضمون التغيرات و المشاكل التي أدت إلى فرز هذا النوع من الفكر، و تجسد هذا الفكر في شكل حركات اجتماعية مسيسة معارضة تقدم التراث الإسلامي كبديل إيديولوجي و كتعبير عن الاغتراب عن السلطة و المجتمع. و تبحث تلك الحركات عن هويتها و انتمائها خارج النطاق المتعارف عليه في المجتمع.[2]

فضمن الإطارين السياسي المطلبي بالحق المسلوب من الدولة و الفكري الإيديولوجي التغيري تفاعلت جموع الشباب من طرح الجبهة الإسلامية للإنقاذ و تحمست للجهاد الذي صار في منظور قيادتها وسيلة ضرورية للوصول إلى الحكم ، و بسط السلطة على البلاد حيث جاء في منشور جبهة الإنقاذ خلال تشريعيات 1991 : "نحن مصممون على بناء الدولة الإسلامية ، حيث أن تطبيق الإسلام لايمكن أن يتم فقط بالدعوة و الهداية، إنما يستكمل بإنهاض الدولة الإسلامية التي تقوم بنشر مبادئها و تطبيق قواعدها بما لديها من سلطة وقوة".

إن هذا الاتجاه مصمم على بلوغ الحكم بالقوة التي توصل إلى الإكراه واستعمال السلاح و حمل الناس على أفكار لم يقتنعوا بها ولم يتعودوا عليها فترة من حياتهم فإن ماهو صعب على الإنسان، هو تغيير طبعه وما تعود عليه فجأة، فيكون رد فعله هو الرفض المطلق لما يلقى عليه وما يطرح عليه من أفكار ومن أوامر مختلفة.

إن أمثال هذا الفكر الخارجي الذي يخرج بفهمه وتصوره عن الأمة له عدة أمثلة في التاريخ الإسلامي، فقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من هؤلاء فقال: " سيخرج من أمتي على أمتي من يقتل برها ويترك فاجرها يمرقون كما يمرق السهم من الرمية " .

و أول من ظهر منهم الشيعة الذين يقول فيهم "الشهرستاني" : « هم الذين شايعوا عليا وقالوا بإمامته وخلافته ، نصا و وصاية، إما جليا و إما خفيا. واعتقدوا أن الإمامة لاتخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو التقية من عنده، و قالوا ليست الإمامة قضية ».

(1) مذكرات خالد نزار : مطبعة الشهاب، ص 240.

(2) د. سهير لطفي : إشكالية هوية الشباب الإسلامي بين الفكر و الحركة في جذور الإرهاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، ج1 ، ص 64.

وهم خمس فرق: كيسا نية، زيدية، إمامية، غلاة وإسماعيلية. و قد أثرت الثقافة في الفكرة الشيعية.

فمع تطور الفتح الإسلامي و تحريره أمما و شعوبا غير عربية و انطوائها تحت راية الإسلام، خمدت ثقافات غير إسلامية أمام المد الإسلامي و كانت هذه الثقافات تركز على عقيدة الإله عند الفرس و اليهود قوامها التجسيم و التشبيه و الحلول والتناسخ وغير ذلك.[1]

لكنها مع اتساع الساحة الإسلامية واستغلال السماحة الإسلامية في كل ضروب الحياة وخاصة حرية الرأي التي لم يحجر فيها الإسلام على إنسان. برزت هذه الثقافات في شكل أحقاد شعوبية وقومية ضد الإسلام وأهله[2]. ثم ظهر الشيعة الغلاة، والغلاة هم المتطرفون.

و هذه الفئة تذهب إلى القول بأن عليا أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله علية وسلم وأنه تجب إمامته قبل غيره، وبلغ بهم الضلال بعيدا عن الفقه الصحيح للإسلام بأن قالوا بالحلول وأن عليا حل فيه جزء من الله ، وأنه اتحد بجسد علي و أصبح عند هذه الطائفة المغالية بشرا وإلها في آن واحد.

و هناك فرق أخرى أخذت منحى ديني و سياسي في آن واحد و لجأت إلى استعمال العنف مثل القرامطة و البابكية والإسماعيلية التي كونت الدولة الفاطمية في المغرب العربي ومصر والشام واليمن فترة تاريخية. وهي فرق باطنية تؤول النصوص القرآنية و تقول بأن للنص ظاهر وباطن وغايتها في ذلك التخلص من قيد النصوص الشرعية.

و تعتبر النصيرية التي تنسب إلى ابن نصير و لهذه الفرقة معتقداتها و شعائرها و مخالفتها للفرق الباطنية. تتمثل في قدرة أتباعها على استعمال العنف واحاكة المؤامرات و هي من أنشط الفرق الباطنية، تمثل نظام الحكم في سوريا.

و من الفرق الأخرى التي ظهرت في بداية صدر الإسلام : الخوارج، وهم فرقة دينية يقيمون على علي التحكيم وعلى عثمان إيثاره لأهل بيته، ويرون أن الخلافة تكون شورية ، النظر فيها لعقلاء الأمة ، و لا تتعين في بيت ولا شخص و لا يعترفون بالسلطة الشخصية. و يكفرون بالمعاصي، ولا يشترطون أن يكون الإمام من قريش. و قد انعكست أقوالهم بالتكفير على رد فعل غلاة الشيعة، بسبب تكفير علي رضي الله عنه فهو عند الشيعة يؤله و يوضع في مرتبة المعصوم.

(1) صابر طعيمة : دراسات في الفرق، ص 14.

(2) صابر طعيمة : التراث الإسرائيلي في العهد القديم و موقف القرآن منه، ص 420.

ومن فرق الخوارج التي لجأت إلى العنف :

المحكمة : وهم الذين كانوا ينزلون إلى الأسواق ويجمعون الناس منادين إلى شعارهم الشهير (لا حكم إلا لله) ثم يضربون بسيوفهم كل من يجدونه ، وينقضون على الناس في الطرقات والميادين في هجمات مفاجئة فيقتلون كل من يلحقون به، ولا يزالون هكذا يقتلون الناس ولذا خشيهم الناس وكانوا يتقون أماكن تواجدهم أو تجمعهم. ويضم في دفاعهم عن هذا المبدأ (لا حكم إلا لله) يعتقدون أنه لا تحكيم في دين الله لأحد من الناس إلا بالله ، وهم لهذا السبب يكفرون كل من يتناول أمرا لا يعبر عن حكم الله في الناس. وإن ميلهم إلى العدوان ومقاومة من يخالفهم هو الذي دفع ببعض معتنقي الإسلام إلى استعمال العنف كوسيلة للتعبير أو الحوار.ومن الفرق الأخرى .

الأزارقة : الذين أباحوا دماء من ليس معهم وقاموا لأجل ذلك بأعمال شنيعة.وإن هذا التطرف الذي لجأت إليه هذه الفرق مبعثه عقيدة التكفير ،تكفير الأمة من أولها إلى آخرها. فيكفرون مرتكب الكبيرة سواء أقيم عليه الحد أو لم يقم وبعضهم يكفر المسلم على المعاصي البسيطة.

ويعتبر الفقه الشاذ الذي خرجت به هذه الفرق الإسلامية الحديثة لا يختلف عن هذه الفرق القديمة في بعده العقيدي والممارسة العنيفة مع المخالفين من جهة أخرى.

فتحت رغبة الوصول إلى الحكم استبيحت الكثير من الأحكام الشرعية الواضحة فلم يعد هناك مجال لاحترامها. فكل ما يوصل إلى الهدف وهو السيطرة مستباح، القتل، التجريد من الممتلكات، الاستخدام البشع للأتباع ولغير الأتباع تحت طائلة التهديد.

حمل الناس ظاهريا على ممارسات شكلية تبدو من الإسلام، كعدم التدخين وعدم استعمال جهاز التلفزيون الذي يعرض صورا خليعة، والامتناع عن القمار ومنع الناس تأدية صلاة الجمعة في المناطق البعيدة الريفية حتى تقوم الدولة الإسلامية.

ووصل الأمر إلى استحلال دماء غير أفراد هذه الجماعة ففي حالة الضرورة يجوز ذلك بأن كان لدفع الخطر ولو وصل الأمر إلى قتله مقابل النجاة بالنفس. ما دام أنه يعتبر حربيا أي ليس من الجماعة، ويجوز استحلال أعراض هؤلاء و كذلك الممتلكات واعتبار زواج المتعة للترويح عن النفس وتحمل أعباء الجهاد والعيش الصعب في المناطق الجبلية المعزولة.

كما أن تواجد هؤلاء الأفراد منعزلين عن المجتمع طول هذه المدة، سنوات تلو سنوات خلق لديهم شعورا بالاغتراب وتركب لديهم تغلب النظرة السوداوية للناس ، وتخطيئهم في ما هم عليه من مواقف غير مؤيدة للجهاد وللدولة الإسلامية المنشودة، وتعبر عن مبدأ هجرة المجتمع الفاسد.

كما اعتبر التجنيد في صفوف الجيش الوطني الشعبي أو الدرك والانخراط في صفوف أسلاك الأمن الأخرى بمثابة موالاة للطاغوت ومعاداة لهذه الجماعات التي تحمل رسالة الجهاد. وعلى الذين يأتيهم أمر الالتحاق بصفوف الجيش عصيان الأمر والفرار مع هذه الجماعات لتقوية صفوفها. ومن يسمع عنه أنه ألتحق بالجيش تظل هذه الجماعة تراقب التحاقه ببيته ولو لبضعة أيام ، فإذا أمسكت به فلن يرى الحياة مرة أخرى،وسيكون جزاؤه القتل . وتظل عائلته تحت المضايقة والضغوطات بعد ذلك.

إتباع علماء من خارج البلاد والاستناد إلى فتاويهم فأجازوا الجهاد في الجزائر، مادامت أن الانتخابات أوقفت وصودرت أصوات الذين انتخبوا عليهم وجردوا من الحق الذي أعطاهم إياه الشعب. فاعتبر الجهاد مشروعا وحمل السلاح على الدولة يجب أن يتم في أسرع وقت ممكن.

سكان البابور تحت سيطرة GIA و AIS:

إن أفراد الجماعات المسلحة بمختلف فصائلها التي وجدت بالمنطقة - الجيش الإسلامي للإنقاذ والجماعة الإسلامية المسلحة – حيث تحتل هذه الأخيرة الجزء الغربي من البلدية والأولى الجزء الشرقي منه.اتبعت في البداية إستراتيجية المهادنة ومعاملة السكان بحذر، فالظهور أمام الناس لا يكون إلا في مواقف جد محدودة، وبدون مخالطة السكان وخوض الحديث معهم كثيرا أو إعطاء أي تفاصيل عن تحركات أفرادها.

ومما ساعدهم كثيرا على سرعة التموقع في هذه المناطق الجبلية هي الغابات الكثيفة حيث يبلغ طول أشجار غابة البابور مايقارب 7 أمتار وبكثافة تقدر بمائة شجرة في الهكتار وتصل نسبة المساحة المغطاة بـــ75%. بأشجار الأرز وخاصة على السفوح الشمالية المواجهة للبحر، بالإضافة إلى القرب بين البابور وغابة القروج التابعة لولاية جيجل، وغابة السطاح، وهي المعاقل الأساسية للجماعات المسلحة عند بداية صعودها لجبال القبائل الصغرى.وساعدتهم كذلك قيام الدولة بنزع السلاح من سكان الأرياف وإعطائهم الاطمئنان الكامل بالتحرك في تلك المداشر دون تخوف.

وكذلك عدم اكتراث واهتمام السكان بهم مادام أنهم لم يتعرضوا لهم بأي سوء، كما أن الأغلبية متعاطفة معهم مادام أنها صوتت لصالحهم ولصالح الجبهة الإسلامية وصودرت أصواتهم والدليل على ذلك أن مرشحي الجبهة الإسلامية في المحليات والتشريعيات فازوا بأصوات كثيرة و بعدها عن مراقبة الدولة، فلا وجود لفرق الدرك الوطنـــي أو الأمن، التي لا تتواجد إلا بمقر البلديات، بابور، إيراقن، والبلديات المجاورة الأخرى، وما يمثل الدولة سوى وحدات صغيرة

لمراقبة الغابات، التي كانت الهدف الأول لهذه الجماعات حيث قامت بالإستيلاء على معداتها من خيم وأجهزة الإتصال اللاسلكية وبعض الأغراض الأخرى، ثم بعد ذلك صارت المدارس والإقامات السياحية هدفا لتلك الجماعات تأخذ ما تجده في المطاعم من وسائل الطبخ وقارورات الغاز ومواد غذائية مخصصة لإطعام تلاميذ المدارس.

وفي مرحلة أخرى انتهجت أسلوب الحواجز في الطرقات واعتراض وسائل الدولة من شاحنات وسيارات يجبر سائقوها على التخلي عنها تحت التهديد بالسلاح، تؤخذ إلى عمق تلك الغابات الكثيفة لتستعمل في التنقل والحركة، حتى قيل أن مناطق معلومة في غابة السطاح صارت أشبه بحظائر للسيارات والشاحنات الصغيرة الحجم و مختلف الوسائل الأخرى.

ولقد فرض على سكان تلك المناطق عدم دخول المناطق الجبلية و الغابية المحاذية لمداشرهم وقراهم. فقد اعتادوا الذهاب للبحث عن قطعان الأبقار التي يتركونها تذهب للرعي لعدة أيام ثم يتم تفقدها لعدة أيام. فأصدرت أوامر من خلال كتابة بيانات علقت على أبواب المصليات و الدكاكين و الأماكن التي اعتاد الناس التجمع فيها تحذر كل من يخترق هذه المناطق المحرمة والتي يطلق عليها البعض تنكيتا المحررة، فلم يعد بعدها أحد يستطيع الصعود إلى الجبل وبذلك خلا الجو لهذه الجماعات لتتخذ منه وكرا تنظم فيه نفسها وتستعد للمواجهة المسلحة مع الدولة باتباع أسلوب حرب الكر و الفر وتحديد أهداف بسيطة يسهل إصابتها بسرعة ثم الانسحاب دون خسائر.

كما بدأت مع سنة 1993 في الاحتكاك شيئا فشيئا من سكان تلك المناطق الريفية ومحاولة فهم نظرتهم لهذه الجماعات، وتحديد العناصر الموالية والتي لها استعداد للتعامل معها والعناصر الرافضة لها وذلك بالنزول إلى المصليات وإلقاء خطب يشرح فيها أهداف هذه الجماعة والغاية من جهادها ضد السلطة، وهي إسقاط النظام الكافر الظالم وإقامة الدولة الإسلامية العادلة التي تطبق شرع الله وحكم الله في الأرض فيصير الناس في اطمئنان. كما تحدد الخطوط التي يجب على الناس عدم تجاوزها وهي إفشاء السر عن تحركات هذه الجماعات للدولة أو التعاون معها وتوضيح الحدود الشرعية الواجب تطبيقها على اعتبار أن تلك المناطق صارت تعيش الإسلام تصورا وتطبيقا، وأنها هي منطلق التجربة في إرساء بناء الدولة الإسلامية المنشودة، فتحاول بذلك أن تنظر إلى مدى استجابة الناس لدعوتها وفكرها، وقد انخدعت حينا ببعض الاستجابة المظهرية تحت طائلة التهديد والتخويف وليس بدافع الاقتناع والفهم، فلم يعد اليوم أي مظهر لهذا المجتمع النموذجي الذي يمثل الإسلام أحسن تمثيل ويطبقه بعيدا عن كل نقص وتحريف، كما هو

حاصل لأفراد المجتمع الآخرين المقيمين في المدن ومعهم أفراد الدولة والمثقفين الذين يجب هجرهم وعدم العيش معهم، فهذه المداشر هي بمثابة دار هجرة وغيرها دار حرب وأكثر من دلك دار كفر، أخذا بتقسيم الفقهاء القدامى الذين يعتبرون بلاد الدولة الإسلامية دار إسلام وغيرها من البلدان المسيحية والمجوسية واليهودية بدار كفر.

فهذا الوضع الشاذ لم يستقر لهذه الجماعات بسبب هجرة السكان وعدم تحملهم لمثل هذه الضغوطات من جهة وضغوطات الدولة من جهة أخرى، فصار الأمر يقتصر على أفراد هذه الجماعات فيما بينها، تقيم الشرع فيما بينها وتصدر الأحكام على ما تبقى من السكان بعد أن صار تعاملها معهم خشنا. فما كانت تنتظره منهم لم يتحقق ، الناس يتظاهرون بالسير خلف هذه الجماعات فقط تحت تأثير الخوف.فالذين منعوا من حمل الدخان في جيوبهم صاروا يتظاهرون فقط بينما لم يتوقفوا عن التدخين ، والذين انصاعوا لأمر القيام بالصلاة لم يقوموا بها إلا إذا تصادف حلول وقت الصلاة مع مجيء أفراد هذه الجماعات.بينما منع عنهم استعمال التلفزيون لقطعهم عما يجري من أحداث و منع وصول رسالة الدولة عبر التلفزيون و حجة هذه الجماعات في منعه لأنه يرسل صور النساء سوافر غير متحجبات وأفلاما خليعة لايجوز للمسلم رؤيتها.

والذين يتظاهرون بتقديم المعونات المالية والاشتراكات إنما هو تحت طائل التهديد والإلزام فالإمتناع سيعرض صاحبه للإكراه والمضايقات وربما ينتهي الأمر بالقتل أو بالتعذيب فيختار أخف الضررين وهو دفع جزء من ماله خير من أن يذهب هو بأكمله من هذه الدنيا.

ومن يمتلك سيارة أو شاحنة فلا يمانع أبدا إذا طلبت منه خدمة معينة، ولا تقبل منه كل الاعتذارات وأشدها أن تعلم به الدولة، فيجب عليه هو كذلك أن يكون من المتمردين على الدولة ولا يبالي بالتهديد ولا السجن ولا التهم الموجهة له وهي التعاون مع الجماعات الإرهابية.

وربما تطلب منه أعز وأشرف مايملك وهي زوجته أو بناته وليس له إرادة لأن يرفض، بالرغم من أنني لم أعثر خلال تحقيقاتي الميدانية على حالات معينة تعرضت لهذه الأفعال ولم أقصد إلى طرحها مع المستجوبين لحساسية الموضوع ومخافة أن يعرضوا عن الحديث معي.

معاناة سكان البابور خلال العشرية الماضية :

إن المعاناة التي عاشها سكان المداشر والقرى أخذت صورا وأشكالا مؤلمة للغاية تبين حقيقة عمق المأساة التي دمرت النفوس والعلاقات الاجتماعية ، وأتت على الريف الجزائري كبنية من بنى المجتمع الأساسية التقليدية ، وباتت المعتقدات والقيم المرتبطة بالمحيط الريفي

مهددة بالزوال تحت تأثير المحيط الحضري الجديد الذي نزح إليه السكان الهاربون من جحيم الإرهاب.

إن الأزمة العامة التي يمر بها مجتمعنا حاضرا هي التي وضعت نمط المعتقدات التقليدية في أزمة وخلفت العنف في العلاقات حتى الأسرية، وجعلت حياة الأفراد، الشباب، المرأة، وغيرهم يعيشون الاضطرابات والخوف من المستقبل لأنه لا يحمل لهم تباشير النجاح و الخير.

إن الصراعات السياسية التي حدثت في المجتمع دعت إلى تمسك كل طرف بادعاءاته وما يراه حقا مشروعا، فالدولة ترى أنها صاحبة الحق في حفظ الأمن وإنقاذ البلاد من خطر الأصولية والدولة الثيوقراطية. والجماعات الإسلامية المتفرعة عن الجبهة الإسلامية ترى أنها صاحبة حق مغتصب بالقوة وأن عليها الجهاد حتى تستعيد حقها المشروع.

هذه الصراعات ألقت بظلالها على سكان البابور بشكل مباشر فجعلتهم بين مطرقة هذه الجماعات وسندان السلطة.

فمن أشكال المعاناة التي بدأت في دشرة واد عفرة المعزولة والبعيدة عن سلطة الدولة ،حيث تعرضت المدرسة إلى تجريد من لوازم المطعم وانتزع العلم الوطني أمام التلاميذ والمعلمين ثم بدأت الاستفزازات تطال المعلمين. فهذا السيد "جمال" المكلف بالإدارة بعد ذهاب المدير وهو ساكن بواد عفرة يقول أنه عانى الكثير من الضغوطات، فحينما يأتي أفراد هذه الجماعات فلا يجد حيلة من الاستجابة لكافة طلباتهم دون أي نقاش.وعندما يستدعى من طرف الدرك يلام ويؤنب على تساهله معها ويوجه له اتهام ضمني على أنه متواطىء بأي شكل من الأشكال وزادت المتاعب أكثر لما التحق أحد المعلمين العاملين بالمدرسة بالجماعة الإسلامية المسلحة وصار عضوا نشطا فيها، فصرنا كما قال جميعا في قلب الإعصار، حيث بدأ التلاميذ في التناقص بسبب رحيل أسرهم، كما صار المعلمون يتناقصون واحدا تلو الآخر فهذا "علي" انتقل في 1991، والسيد "جمال" رحل في 1995 وآخرون انتقلوا إلى مناطق آمنة ،في ظل معاناة تلاميذ المدارس و تراجع مستوى التدريس.

صعوبة التنقل والتزود بالضروريات :

لم يعد التنقل بالنسبة لسكان المناطق الجبلية المعزولة بعد رحيل العديد من أصحاب السيارات، و اضطرار البعض إلى بيع وسائلهم لأنها دائما في متناول هذه الجماعات دون أن يتمكن أحد من الرفض أو الإعراض أو تأخذها منهم الدولة بصفة نهائية لتحرم هذه الجماعات

من إيجاد أي وسيلة للتنقل. فـــ"محمد" يقص حادثة عن ابن عمه الذي أخذت منه السيارة من طرف رجال الدرك وقد علمنا بمكان تواجدها إلا أنهم لم يعترفوا بوجودها لديهم. ولم يظهر عنها أثر إلى الآن في ظل انعدام وسائل النقل، صار التنقل على الأرجل هو الخيار الوحيد بين واد عفرة وبابور، وواد عفرة وزيامة فالسكان مجبرون على المشي لمسافة تصل إلى أكثر من 40 كلم ذهابا وإيابا وهو ما يستغرق يوما كاملا، من أجل قضاء مصالح معينة، ونحن مجبرون على حمل ما نحتاجه من مواد غذائية ضرورية على كواهلنا يوميا يقول سكان واد عفرة وكذلك الحال بالنسبة لبقية المداشر كما أن نقل مريض لا يتم إلا فوق الأحصنة و الأحمرة بعد أن تخلينا عنها منذ سنوات.

كما أن تعاطف السكان مع هذه الجماعات في البداية على اعتبار أنهم مظلومون و أنهم خرجوا على الدولة لأنها انتزعت منهم حقا أعطاهم الشعب إياه ،جعلهم يطمئنون إلى السكان و لم يتعرضوا لهم بسوء. بالإضافة إلى أمور أخرى استراتيجية و تكتيكية لدى هذه الجماعات لم أتمكن من معرفتها لأنني لم أصادف أي أحد من التائبين من سكان المنطقة، لعدم وجود أي أحد منهم حسب علمي، بينما الموجودون على مستوى الولاية لم أفلح في الاتصال بهم و التكلم معهم في الموضوع رغم محاولاتي العديدة.

و أعود إلى الكلام عن بداية تحرك هذه الجماعات التي أخذت في البداية مجرد كلام طفيف من الناس تصادفوا مع مجموعات قليلة. أول حادثة أخذت كلاما متداولا بين الناس هو عثور أحد سكان القرى المحاذية لجبل بابور على جثة رجل هامدة في العراء، و ذلك حينما كان في إطار البحث عن أبقاره التي لم يرها لعدة أيام، هذا في خريف 1992، ثم في صائفة 1993 تعرض حراس الغابات بخنقة الحد إلى سطو حيث جردوا من وسائل العمل (راديو لا سلكي، خيم). و بدأت بذلك تحركات محسوسة يشعر بها سكان المنطقة.

أما على الصعيد الوطني فلم يعد خافيا على أحد، فبعد توقيف المسار الانتخابي للانتخابات التشريعية بعد الفوز الساحق للجبهة الإسلامية للإنقاذ في الدور الأول بـــ 188 مقعد و بقاء حظوظها في الفوز بما تبقى من مقاعد، تحركت مخاوف الجميع: الجيش، الأحزاب، المثقفين... ماذا سيحصل في المستقبل؟ هل ستغير الجبهة حياة الناس كلية بتطبيق أحكام الشريعة؟ و تلغي التعددية السياسية لأنه لا وجود إلا لحزب واحد هو حزب الله في ظل الدولة الإسلامية وما عداها من الأحزاب فلا معنى لوجودها. ماهو مستقبل موظفي الأمن بعد أن صرح أحد زعماء الجبهة بشأن قوات الأمن الذين سيستغنى عنهم في حالة قيام الدولة الإسلامية ؟

كيف ستكون حياة المرأة، هل ستحافظ على الحقوق التي ترى أنها من مكاسبها؟ كالعمل و حرية الخروج بمفردها، اللباس الأوروبي الذي ألفت لباسه أم أنها ستضيع ذلك.

نقاط التفتيش وما يفرض فيها من قيود :

إن دخولنا أو خروجنا من المدن المجاورة، بابور، زيامة، إيراقن أو الشرفة يجب أن يكون عبر الطرقات و ليس عبر الطرق الفرعية، وعند مرورنا يجب أن نتوقف لنستظهر ما نحمله من مواد غذائية. وعند كل مادة يطرح السؤال لماذا كل هذا العدد، فمثلا إذا كان السكر 2 كلغ فلماذا لاتحمل 1 كلغ فقط و السميد لا يسمح إلا بكيس واحد. فـــ"العياشي" يحكي عن السبب الذي دفعه إلى الرحيل، أنه في أحد المرات وهو عابر بنقطة تفتيش طلب منه أن يمرر كيس واحد من الدقيق ويترك الآخر إلى غاية مرور أربعة أيام، وبعد نقاشه مع رجال الجيش أكدوا له أنه لا بد أن يعود إليه بعد أربعة أيام و رغم إلحاحه شارحا لهم أنه رب أسرة يتجاوز عدد أفرادها العشرة ولا يكفي كيس من الدقيق إلا لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، و رغم الحاجة لم يسمح له بنقل الكيس الثاني فحينها يقول قررت الرحيل نهائيا.

لليل وقعه على النفوس:

حسب ما قال الذين قابلتهم إذا ما حل الليل وبدأ يرخي سدائله على مداشر البابور، فإنه يتملكك إحساس غريب بالخوف لا يمكنك تصوره. فأنت محاصر من كل الجوانب، تجلس وكأنك في متناول كل مكروه قد يطرق بابك بين لحظة وأخرى، فلا منجد ولا مغيث لك، فلا جارك ولا أبناء الدشرة بمقدورهم تخليص أي فرد تمت مداهمة بيته جماعة مسلحة،لأنه ليست هناك أي حيلة في مواجهة جماعة مدججة بالسلاح و مدربة تدريبا جيدا على استعمال السلاح ومستعدة للمخاطرة أكثر. ففي 24 ماي 1994، "علي" 62 سنة يحكي مأساته هو وثلاثة أسر أخرى من الدشرة تعرضت إلى اقتحام في منتصف الليل من طرف مجموعة مسلحة وأخذت عنوة أبناءها الذين جاءوا في إجازة من الخدمة الوطنية. في جو رهيب : (تقدموا وأخذوا أبناءنا من بين أحضاننا ونحن نبكي ونصرخ إلا أن ذلك لم يبعث في قلوبهم أدنى شفقة ولا رحمة. وقد وعدونا على أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تحقيق ثم يخلون سبيلهم بعد استكمال التحقيق. لكنها كانت النهاية. لم يرى لهم أثر بعد تلك الليلة الرهيبة المخيفة. وبعد حوالي شهر سمعنا بمقتلهم ومكان دفنهم في إحدى الغابات غير بعيد عن الدشرة).

كيف كان سكان مجرقي، كيف يمضون الليل؟ إن الخوف يقطع أكبادهم ويبعد النوم عن جفونهم، فمجرد همسة أو حركة خفيفة تطير معها قلوبنا وترتعد لها فرائسنا. هذه الوضعية عشناها

سنوات، والليلة الواحدة منها بطول سنة. فأنت في بيتك تضع في حسابك أنك أنت المقصود في تلك الليلة. ربما من أجل المال، وربما من أجل السيارة. و الأسوأ ربما من أجل تقطيع رأسك فكل من سبق وأن أخذته هذه الجماعات لسنا ندري ما هو السبب الذي من أجله اختطف واعتقل وفي بعض الأحيان من أجل أسباب لا تعدو أن تكون مجرد شبهة أو وشاية كاذبة من جار أو خصم أراد أن يشفي حسده وغليله.

و إن مما يجعل خوفنا رعبا حقيقيا وهلوسة يطير معها العقل، لا وجود له حينما بدأت ظاهرة الرحيل والنزوح تتزايد من يوم لآخر فالناس لم يعودوا يطيقون البقاء في ظل هذا الجو المخيف القاتل.

فالعدد القليل المتبقي صار كاللقمة السائغة في أفواه هذه الجماعات المفترسة، صار العدد القليل من السكان المتأخرين عن النزوح بين ضغطين، هذه الجماعات التي ضاق عليها الخناق خاصة في سنوات 1997 وبين ضغط السلطات العسكرية التي تنظر إلينا على أننا متواطئين مع هذه الجماعات وحلفاء لها، بينما أخرنا ضعفنا وعدم قدرتنا على الرحيل وليس أمر آخر، ويقول بعض سكان واد عفرة أنه وفي 1997 أصدرت السلطات العسكرية أمرا بالرحيل السريع ودون أي مناقشة وإلا سنستحمل مسؤولياتنا، فحينها لم نجد حيلة سوى الرحيل دون أن تكون لنا أدنى الشروط والإمكانيات، علينا أن نرحل ولسنا ندري إلى أين؟ وما هو المستقبل الذي سنشرف عليه؟

إن الإنسان اجتماعي بطبعه تدفعه طبيعته البشرية إلى الاستئناس ببني جنسه وبني قومه وعشيرته فبرحيل هؤلاء كيف يطيب لنا البقاء؟ إنه أمر مستحيل، علينا بالرحيل وكفى. إنها مأساة حقيقية لم نكن نتصور أنفسنا أننا سنعيشها في ظل الجزائر المستقلة وفي ظل الجزائر المقبلة على الديمقراطية والحريات، إنها الأقدار هكذا سارت وهكذا رمتنا فما علينا إلا الصبر والاحتماء بالخالق سبحانه وتعالى. ومما يحكى أن أحد النازحين جمع بعض متاعه وأفراد أسرته واتجه صوب وجهة لا يعلمها وحينما سأله صاحب السيارة إلى أين أنت ذاهب؟ فرد عليه لست أدري المهم سر. ولما تجاوز به حدود بلدية عموشة صرخ في وجهه قائلا إلى أين تريد أن تأخذني أعدني إلى عموشة حيث يسكن صهري. فعلا أمثال هذا الإنسان المتعب عن التفكير كثيرون جدا.

الشرف الغالي يدنس :

إن أغلى ما يمتلكه الإنسان الجزائري هو الشرف يسعى إلى صونه وحفظه من الدنس بكل الوسائل وبأغلى مايملك وهو النفس، هذا الشرف الذي يستعد الإنسان الجزائري لأن يدافع عنه ضد من يمس به بدون هوادة ولا إستكانة، فهذه الجماعات دنسته ونالت من كرامة سكان الأرياف. وحتى خلال بحثي لم أرد التطرق إليه بشكل أسئلة مباشرة إلا أنه يظهر من خلال حديث الكثيرين ممن قابلتهم، أنه من الأسباب التي دفعته للرحيل هو حماية نفسه وعرضه من أن يدنسه أناس أراذل أوغاد لاقيمة لهم، ولو كانت لهم قيمة لراعوا مشاعر الناس في هذا الجانب الحساس، وان لم نسمع كثيرا عن حوادث إختطاف فتيات بالمنطقة كما نسمع عن ذلك بكثير من المناطق الأخرى إلا أن خوف الناس على أعراضهم يعتبر من أهم أسباب النزوح ومغادرة المداشر. وتعتبر دشرة واد عفرة هي الوحيدة التي صعد منها أربعة فتيات أخذن برضاهن من طرف الجماعات المسلحة في شكل زواج المتعة. وسمعنا في سنة 2002 بأن إحداهن هربت ليلا وسلمت نفسها للسلطات ببلدية بابور.

تشكيل فرق الدفاع الذاتي من أجل الدفاع عن الذات : بقي سكان البابور مشدوهين أمام الجرائم المرتكبة في حقهم دون أن يتمكنوا من فعل أي شيء يرد عنهم التنكيل والتمثيل بالجثث، ففي شهر رمضان من سنة 1995 أختطف شخصان يسكنان داخل مركز البلدية من منزليهما ليلا دون أن تتمكن قوات الدرك الموجودة لوحدها آنذاك بالبلدية من التدخل ،مكتفية فقط بالدفاع عن مقرها نظرا لقلة عدد عناصرها، أما بقية المواطنين فهم غير مسلحين ولم تنظم فرق الدفاع الذاتي المختصة بالدفاع وحماية الأحياء السكنية المدنية إلا بعد الهجوم على مقر البلدية.

قلت شكلت عملية الاختطاف لهذين الشخصين صدمة كبيرة لدى السكان بعد أن انتهت بنهاية مأساوية حيث قتل الشخصان ومثل بجثتيهما تمثيلا شنيعا ظهر كما يقول الذين شاهدوهما على جسديهما، حيث عري النصف العلوي منهما وترك داخل سيارة على أحد مداخل المدينة، وقد فتحت أبواب السيارة ولم يتمكن أحد من الاقتراب منهما مخافة أن تكون السيارة ملغمة إلى أن قدمت فرقة مختصة في تفكيك الألغام من سطيف، ظل المشهد طيلة يوم كامل مما خلق رعبا شديدا لدى السكان وجعلهم يكادون يستسلمون لسيطرة هذه الجماعات حيث صارت الأكثرية تلبي طلباتهم دون أي نقاش أو تردد.

و مما زاد الوضع أكثر تدهورا وفرض هيمنة هذه الجماعات هو الهجوم الكاسح على مقر البلدية سوق الجمعة الذي تم في 27 من رمضان من 1995، ففي يوم بارد من أيام الشتاء اقترن

بالضباب الكثيف الذي لف المنطقة كلها، مع اقتراب المساء أعدت خطة محكمة تمثلت في ضرب حصار على مقر البلدية عبر مختلف المحاور المؤدية إليها. وهي الطريق القادم إليها من جهة لجوادة وطريق تازروت وعين الكبيرة، سرج الغول، حتى لا تتمكن وحدات التدخل من دخولها ولغمت الجسور والمنعطفات الصعبة.

وقد تمكنت مجموعة صغيرة من التسلل إلى مقر الدائرة على أساس أنهم مواطنون جاؤوا من أجل بعض الخدمات الإدارية وذلك بعد منتصف الظهر، و احتجزت أغلب الموظفين الموجودين بداخل مقر الدائرة وبقيت على اتصال بالمجموعة المتمركزة بالجبال المجاورة وقطعت خطوط الهاتف بين مقر البلدية والبلديات المجاورة لها فعزلت المنطقة نهائيا.

ومع إقتراب موعد الإفطار، تقدمت هذه المجموعات من مركز البلدية منتشرة على الطرقات وكانت أوامرها صارمة إتجاه المواطنين الداخلين نحو البلدية بأنه لا يسمح بالخروج إلا غدا وعلى الساعة السابعة صباحا.

وحينما شرع الناس في الدخول إلى منازلهم وهم على موائد الإفطار بدأ الهجوم على البلدية مستهدفا مركز الدرك بالأخص باعتباره هو الهدف الأساسي، وظل تبادل إطلاق النار مستمرا طيلة الساعتين تقريبا حسب شهادة السكان، دافع فيه رجال الدرك الذين لا يتجاوز عددهم 15 عنصرا دفاعا مستميتا إلى أن تهدم البناء كليا بعد أن فجرت فيه قارورات من الحجم الكبير دحرجت من أعلى الطريق المنحدر لتتوقف عند المبنى فسوته بالأرض.

ثم بعد ذلك إستولت على ما بداخل بعض المؤسسات الحكومية كالصيدلية والمركز التجاري ومصالح الغابات ومقر البلدية، كما تعرضت بعض المحلات الخاصة للنهب والسرقة، وسقط من جانب المواطنين ثلاث ضحايا منهم إثنان قتلا ذبحا بداخل مبنى جماعي مخصص للمسؤولين وموظفي الدولة و الثالث أصابته رصاصة طائشة و هو بداخل محله التجاري.

منطقة البابور معروفة بنزوحها السكاني منذ الاستقلال:

تعتبر منطقة البابور من أكثر المناطق المعروفة وطنيا بطردها السكاني سواء المتعلق بالهجرة النهائية نحو المدن الكبرى أو المدن الصغرى المحيطة، فهي تتدرج ضمن القبائل الصغرى المعروفة بطابعها الجبلي القاسي والذي لا يتوفر على الظروف الاقتصادية التي تقوم عليها الحياة البشرية، فالزراعة جبلية بسيطة والصناعة المعدنية منعدمة كما أن المرافق السياحية لا وجود لها.

بالإضافة إلى ضعف الارتباط بالشبكات، ومقدمتها الطرقات، فالشبكة التي تتوفر عليها البلدية بسيطة جدا، حيث يمثل الطريق الولائي 137 الرابط بين عين الكبيرة وبابور أهم محور يربط البلدية بالجنوب – عين الكبيرة – ثم ولاية سطيف ، وبعض الطرق الفرعية الأخرى والمصنفة لدى مديرية التخطيط والتهيئة العمرانية بولاية سطيف بالبلدية ويقدر طولها 49,8 كلم، وأهمها الطريق الرابط بين: عين الكبيرة ــ الشرفة والشرفة ــ تمدوين، والطريق الرابط بين سوق الجمعة وبلدية واد البارد، والطريق الرابط بين واد عفرة ــ بابور، بابور تازروت والذي يمتد نحو زيامة المنصورية.

بينما شبكة الغاز الطبيعي أو غاز المدينة كما يسمى، فالبلدية لا تتوفر عليه إطلاقا وحتى الكهرباء فإنها لم تصل إلى مداشر لرباع، واد عفرة، وبني بزاز اطلاقا بالرغم من قربها من مركز التوليد الكهربائي زيامة المنصورية المتوقف ولم يعد تشغيله إلا في جانفي 2004 بسبب تعرضه للتخريب، فهذه كلها عوامل طرد سكاني موضوعية و طبيعية جدا، فلا يمكن لإنسان أن يعيش في القرن الحادي والعشرين يقبل بمثل هذه الظروف المعدمة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى وحتى البعض الذي بقي مستقرا إلى غاية التسعينات التي عرفت تدهور الوضع الأمني فإنه بموازاة مع تواجده في البابور شرع في بناء بيت آخر سواء بالعاصمة أو بعين الكبيرة، أو غيرها من المناطق المنتعشة اقتصاديا وثقافيا وهذا يعكس الأزمة التي يتخبط فيها الريف الجزائري فهو يعتبر من المجالات المهمشة اجتماعيا واقتصاديا، فحسب الدراسة التي أجريت من طرف فريق بحث، ونشرت في المجلة الجغرافية والتهيئة لوهران[1]، تشير الإحصائيات إلى أن 3/2 من مدا خيل سكان القبائل الصغرى آتية من الهجرة أي من العمال العاملين بفرنسا وهي نوع من الهجرة المؤقتة غير أنها في السنوات الأخيرة بدأت تعرف قلة بسبب القيود التي صارت تفرضها السلطات الفرنسية على المهاجرين الأجانب ــ وعلى رأسها التأشيرة ــ وصار

[1] Revue de Géographie et d'Aménagement d'Oran, P78.

الشباب في وقتنا الحالي هو المهتم الأول بالهجرة نحو فرنسا وكندا وإيطاليا وغيرها من البلدان الأجنبية، التي يعتقد أن يجد فيها لقمة العيش وصارت عملية الحصول على الفيزا إلى أي دولة أجنبية بمثابة تحقيق هدف عظيم، أو بعبارة أخرى قطع شوط نحو تحقيق المستقبل ، فالأزمة المتعددة التي صارت تعيشها الجزائر سواء على الصعيد الأمني أو الاقتصادي أو الاجتماعي وضعف الدولة باعتبارها الضامن لهذه الضرورات الثلاث، خاصة وان العهد الاشتراكي ورواسبه مازالت متحكمة في الذهنيات وتجعلها تلقي باللوم الكامل على الدولة، فالانتقال نحو الاقتصاد الحر مازال يسير بخطى بطيئة جدا واغلب التعاونيات الشبابية التي نظمت ضمن ما يعرف بتشغيل الشباب لم ينجح إلا القليل منها، وحاولت أن أعرف عددها ووضعيتها لكن السلطات المحلية امتنعت عن إعطائي المعلومات الضرورية.

النزوح السكاني من 1992 إلى الآن يعرف وتيرة سريعة:

حسب نشرية الديوان الوطني للإحصاء الخاصة بالهجرات الداخلية ما بين البلديات في عددها 331 قدر عدد النازحين بـــ : 5665 نازح؛ 4000 نازح في اتجاه بلديات الولاية، والبقية اتجهت خارج الولاية وبالأخص نحو العاصمة، إلا أن العدد من المحتمل أن يكون أكثر، وإلى غاية 2004 حيث عاد الأمن وتوقف العمل المسلح مازال السكان يهجرون مشاتيهم حسب شهادة مدير ابتدائية إموقال الواقعة في منطقة تالوبقت المستقرة نسبيا، يقول مازال الآباء يتقدمون للحصول على شهادات مدرسية من اجل نقل أبنائهم إلى المناطق الحضرية ويبررون تصرفاتهم هذه بأنهم ينشدون الأمن والاستقرار ويخشون من حين لآخر عودة هذه الأوضاع إلى ما كانت عليه من قبل، فلا شيء في الجزائر يمكن اعتباره مستقرا وثابتا.

وحسب إحصائيات حصلت عليها من البلديات المجاورة الأكثر استقطابا للنازحين، فإنها تسجل الأرقام التالية:

البلدية	عدد النازحين	تاريخ الحصول على الرقم
الأوريسيا	1650	2002
عين الكبيرة	2028	2000
أولاد عدوان	658	2002

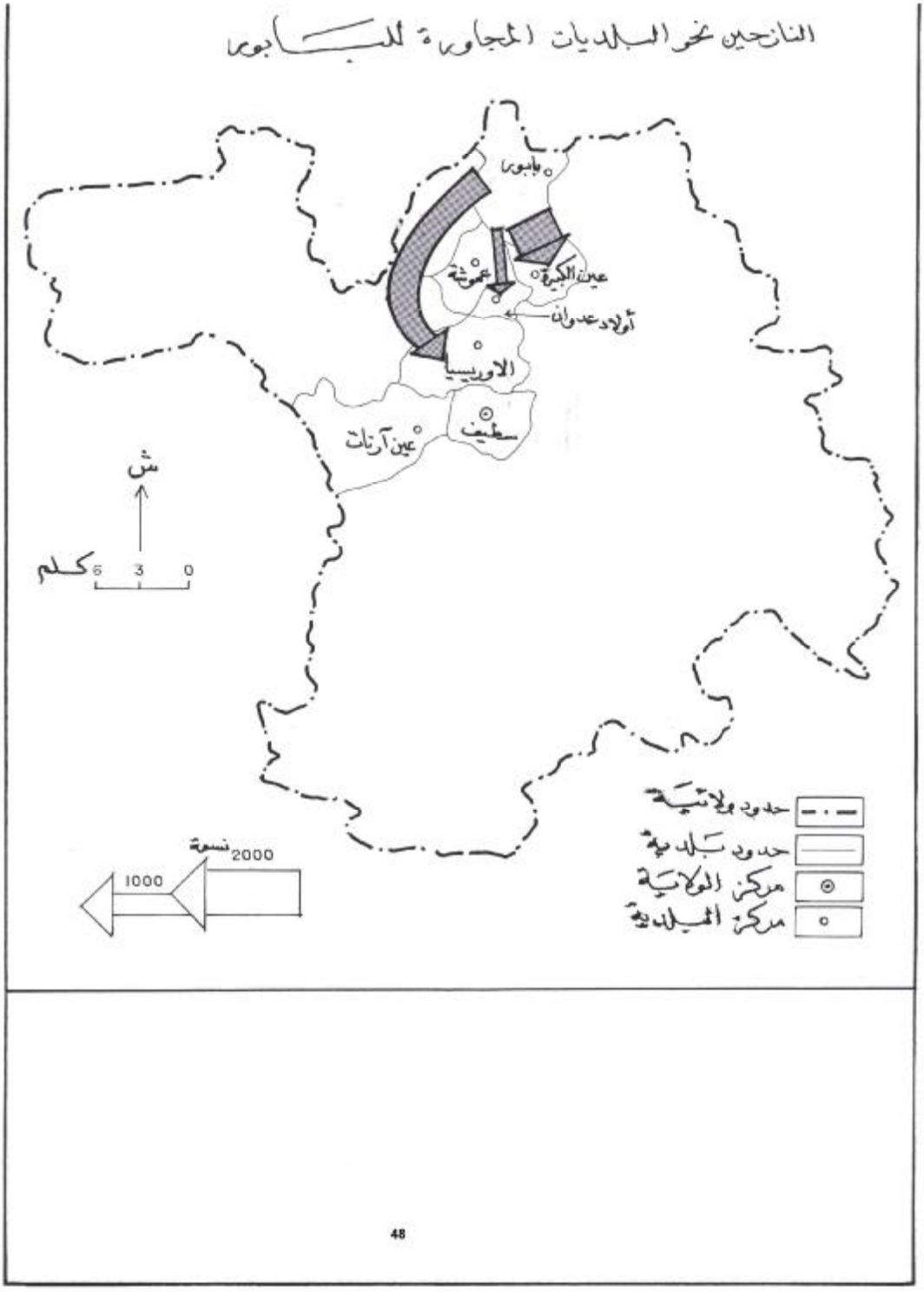
النازحين نحو البلديات المجاورة للسبايوا
بابوا
عين الكبيرة
بحوشة
أولاد عدوان
الاوريسيا
سطيف
عين آرنات
كلم
6
3
0
2000 نسمة
1000
حدود ولائية
حدود بلدية
مركز الولاية
مركز البلدية
48

مع العلم أن هناك عددا معتبرا من النازحين حسب ماصرح به القائمون على مصالح البلديات هذه، لم يدخل ضمن العملية الإحصائية لعـــدة أسباب، منها مثـــلا أنـــه على مستوى بلديـــة عين الكبيرة، تم إحصاء القاطنين في التجمعات السكنية المحيطة بالمدينة وفي الفراغات الصحية، بينما الذين يسكنون في المحيط العمراني بصفة قانونية فلم يدرجوا في الإحصاء.سنة 1995 قياسية من حيث النزوح:

نظرا لتدهور الوضع خلال هذه السنة وتمكن الجماعات المسلحة من إحكام قبضتها على المداشر الواقعة في الشمال، بل امتد نشاطها إلى داخل مركز البلدية التي تعرضت مع مطلع 1995 وبالتحديد في 27 رمضان الذي يعتبر شهر الجهاد وتكثيف العمليات العسكرية، هذا الهجوم الذي استهدف مركز الدرك والدائرة والبلدية ومؤسسات الدولة الأخرى، مركز التكوين المهني والثانوية والصيدلية، أثار مخاوف السكان وجعلهم يهربون تاركين بيوتهم وممتلكاتهم دون انتظار أو تردد.

والأرقام الخاصة بالمشطبين من القوائم الانتخابية والنازحين المسجلين لدى البلديات المستقبلة يبين تأثر حركة السكان بتدهور الوضع الأمني.

جدول يخص المشطبين من القوائم الانتخابية لبلدية بابور

السنة	عدد المشطبين
1995	1364
1996	278
1997	154
1998	252
1999	157
2000	202
2001	226

علاقة الوضع الأمني بالمشطبين من القوائم الانتخابية

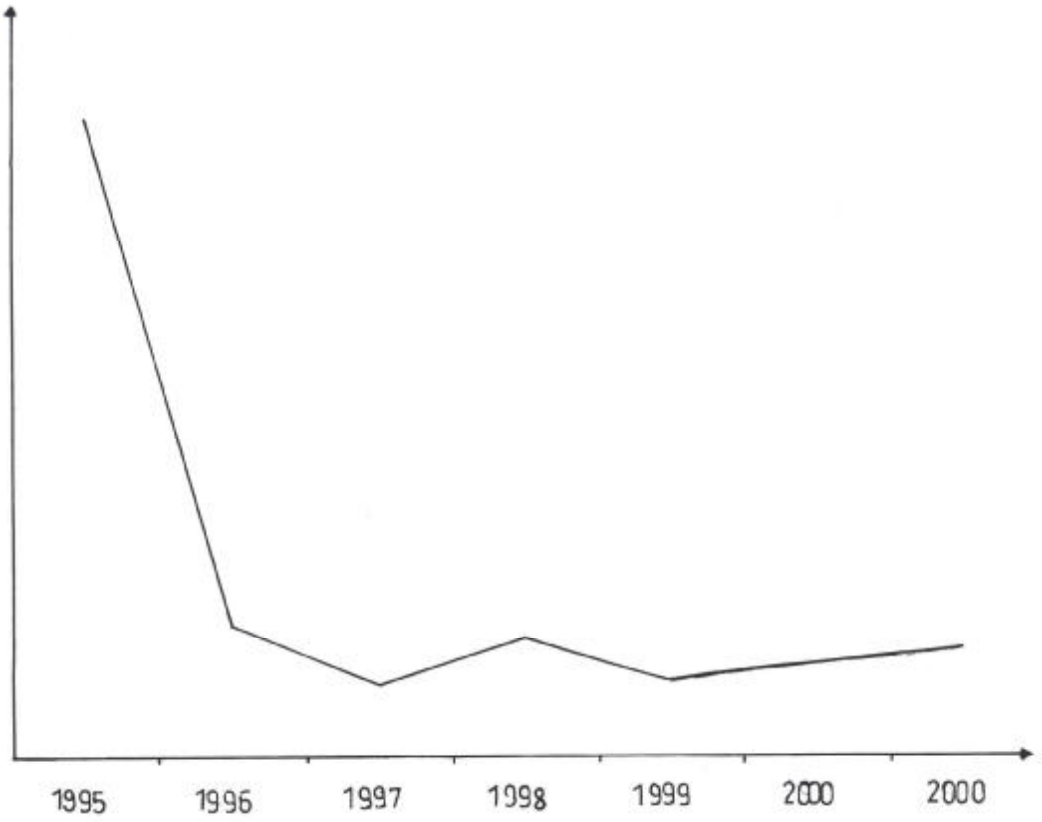

القياس 10مشطبين = 1 سم

50

جدول يخص النازحين من بلدية بابور إلى بلدية الأوريسيا

السنة	عدد الأسر	عدد الأفراد
1993	12	60
1994	03	15
1995	121	605
1996	26	130
1997	48	240
1998	46	230
1999	20	100
2000	28	140
2002	24	120

ولمعرفة حجم النزوح والمناطق الأكثر استقطابا للنازحين حصلت على حركة الخروج لبعض السنوات، الخاصة بإكمالية سيوان محمد بابور.

المنطقة المتجه نحوها	2000	2001	2002	المجموع
عين الكبيرة	14	23	10	50
الجزائر	13	14	11	28
العلمة	01			01
سطيف	03			03
الأوريسيا	01	05	01	07
عموشة	03	01	01	05
البليدة			05	05

المناطق المقصودة من طرف النازحين في سنوات 2000-2001 هي عين الكبيرة المجاورة لبلدية البابور، نظرا للتسهيلات الكبيرة التي منحتها السلطات المحلية لعين الكبيرة لهؤلاء النازحين متفهمة ظروفهم الصعبة.

ثم تأتي الجزائر العاصمة في المرتبة الثانية وتعود أسباب ذلك لظروف اقتصادية وفي مقدمتها وفرة الشغل، ولأسباب اجتماعية تتمثل في وجود أقارب أو جيران سبق وأن استقروا هناك منذ الاستقلال، وهؤلاء المتجهون نحو العاصمة ظروفهم الاقتصادية في الغالب جيدة تسمح لهم بشراء قطعة أرض في الشرارية وبن طلحة والمرجة، على حواف العاصمة ثم يشرعون في عملية البناء بالتدرج وعلى امتداد بضع سنوات.

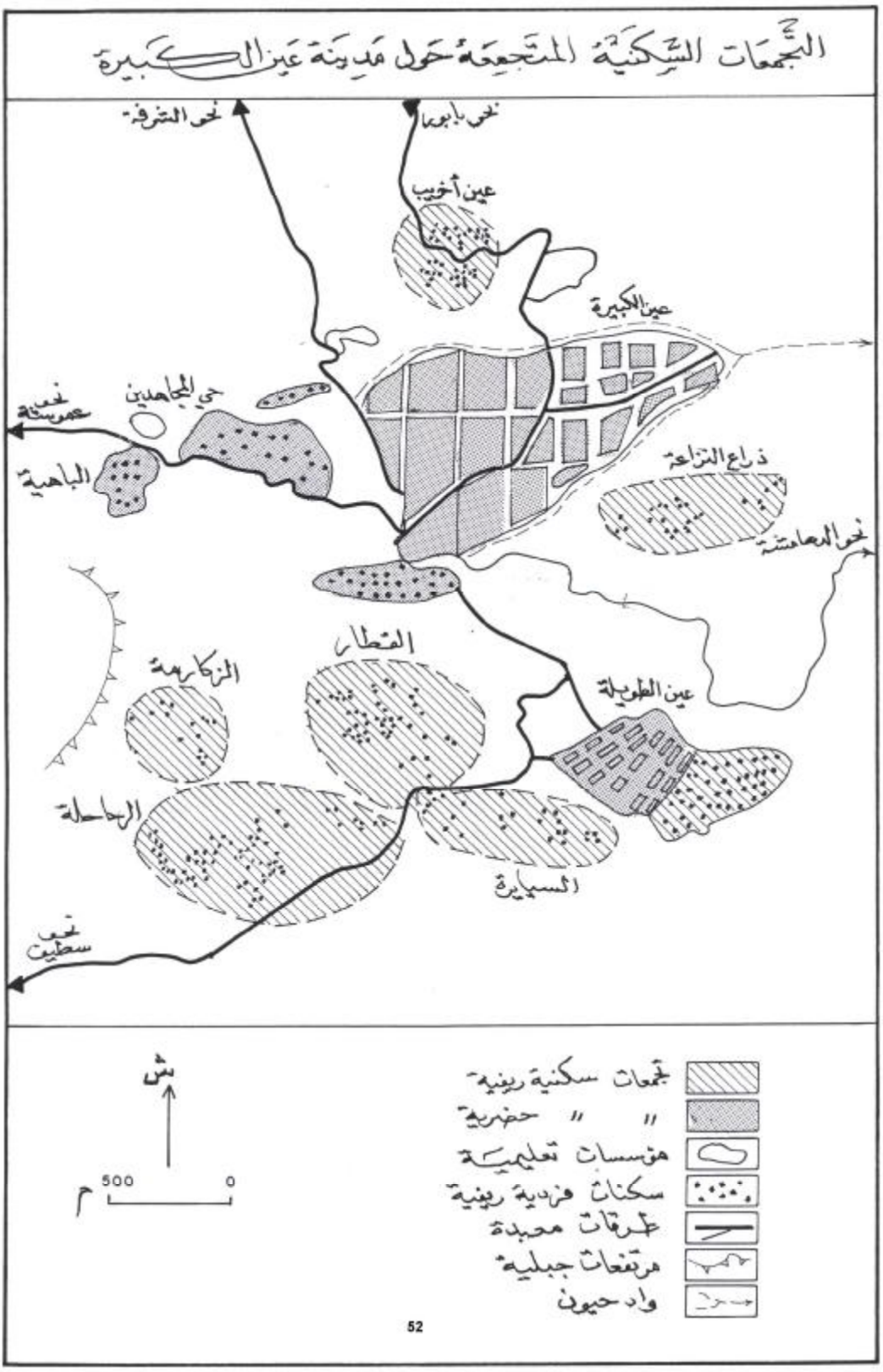
التجمعات السكنية المتجمعة حول مدينة عين الكبيرة
نحو الشرفة
نحو بابور
عين أخريب
عين الكبيرة
حي المجاهدين
نحو عموشة
الباهية
ذراع الزراعة
نحو العامشة
القطار
الزكارمة
عين الطويلة
الرحالة
السمايرة
نحو سطيف
ش
500
0
م
تجمعات سكنية ريفية
" " حضرية
مؤسسات تعليمية
سكنات فردية ريفية
طرقات معبدة
مرتفعات جبلية
واد حيون
52

وتأتي في الرتبة الثانية الأوريسيا الواقعة على بعد 35 كلم من البابور ولا تبعد عن مقر الولاية سطيف إلا بحوالي 10 كلم، وهي بالتالي مدينة تقع في موقع جيد حيث يمر بها الطريق الوطني رقم 09 الرابط بين سطيف وبجاية، كما تعرف تطورا عمرانيا متزايدا، ويقصدها ذوو المستوى الاقتصادي الجيد، من كبار التجار والمتقاعدين من المغتربين الذين يتقاضون منحهم بالعملة الصعبة سابقا FRANC والآنEURO الذي يعوض بقيمة مرتفعة من الدينار الجزائري في أسواق الصرف غير الرسمية، فهي حاليا 100 أورو مقابل 11500 دج.

أما البسطاء فلا يمكن لهم شراء الأرض والبناء هناك، بينما أسعار قطع أرض البناء أكثر ارتفاعا في سطيف والعلمة، ولا يتاح السكن فيها سوى للأغنياء.

جبل البابور تحول إلى بؤرة متوترة وعاملا أساسيا للطرد السكاني:

نظرا لكونه منطقة تضاريسية صعبة المسالك وشديدة الانحدارات تسمح بالتحرك الآمن لأفراد الجماعات المسلحة زيادة على الغطاء النباتي الكثيف المتمثل في الغابات والأحراش، بالإضافة إلى بعده عن سيطرة الدولة بشكل كامل ماعدا على الحواف، ولم يدخله الجيش الوطني الشعبي إلا مع أواخر سنة 2003.

وحسب ما توضحه الخريطة على الصفحة 55 حيث تظهر القرى المتاخمة للبابور فارغة تماما بل أن نصيحة السلطات لي وبعض السكان لما استشرتهم، هل أستطيع أن أذهب إلى لرباع وبني بزاز؟ فإن إجابة الجميع: هذا امر غير ممكن تماما وان الوضع خطير، أما حاليا فإن بعضا من سكان تلك المداشر الخالية يقومون بزيارات خاطفة في النهار لإلقاء نظرة على بيوتهم ومداشرهم والعودة بعد ساعات وقبل غروب الشمس،لأن الوضع الأمني مازال متدهورا رغم تمركز الجي في عدة نقاط مراقبة. وآخر عملية تمت في مارس 2004،ويوضح الجدول التالي وضع هذه المداشر في الثمانينات وأواخر التسعينات والآن:

الدشرة	عدد السكان في 1987	العدد في 1998	الوضعية في 2004
لرباع	352	000	فارغة تماما
واد عفرة	681	000	//
بني بزاز	316	28	//
لجوادة	390	000	//
بني سعيد	630	283	//

المداشر شبه الفارغة:

المداشر شبه الفارغة هي التي يتراوح فيها عدد من العائلات على اقل تقدير 5 عائلات و على الأكثر 10 عائلات و هم فقراء عاجزون ماديا عن الرحيل، و قد عانت تلك المداشر من الضغط الأمني، إلا أنها حاليا آمنة لكن سكانها رفضوا العودة النهائية مكتفين بالعودة ليوم واحد فقط.

اسم الدشرة	الوضعية 1987	الوضعية 1998	الوضعية 2003
واد الجايزي	322		50 ساكنا
تاتوبلت	679	570	نقصت كثيرا
قطيطة	305		100 ساكن
أولاد جاب الله	909	627	300 ساكن
أولاد بوشنين	539		200 ساكن
تالة أكفي	865	1024	نقصت كثيرا
الماء الفايح	524	559	مازالت على وضعها
أولاد يحي	464	383	نقصت كثيرا
أولاد مرزوق	414	18	شبه فارغة
بني ملول لقبالة	851	355	نقصت كثيرا
مجرقي	991	150	/ /
تالة إجرقان	429	26	/ /
سطاح السان	520	367	/ /

المداشر شبه الفارغة عامل الطرد فيها كذلك أمني واقتصادي وتأثر بموجة النزوح التي صارت في تلك الظروف تحدث تحت تأثير دوافع لاشعورية يحركها الإحساس بالخوف حتى وإن لم يتعرض سكانها إلى تهديد حقيقي، إلا أن عامل القرب من المناطق الخطيرة يعتبر سببا رئيسيا في النزوح.

التجمعات السكانية التي عرفت توسعا عمرانيا وتزايدا سكانيا، وذلك بسبب توفر الأمن بكل من سوق الجمعة مركز البلدية والشرفة، تجمع سكاني ثانوي كما يشير إلى ذلك الجدول التالي:

	عدد السكان 1987	عدد السكان 1998
سوق الجمعة	1763	4763
الشرفة	663	1633

الوضعية السكانية في مدانتر بابور
سوق الجمعة
المشوفة
شمال
0
2 كلم
نزوح سكاني جزئي
" " كلي
مركز البلدية
تجمع ثانوي
طرقات معبدة
طرقات ثانوية
حدود البلدية
جبل بابور
55

دشرة واد عفرة النازحة تحاول أن تحافظ على خصائصها :

هي إحدى مداشر البابور النازحة بحيث لم يبق فيها و لو ساكنا واحدا بعد أن كان عدد الأسر حسب الإحصاء العام للسكن و السكان لعام 1987 يبلغ 98 أسرة. لكنها و بفعل العزلة والوقوع في منطقة جبلية صعبة المسالك و عدم صلاحيتها للاستعمال بشكل كبير، و كذلك الحال بالنسبة للطريق الذي يصلها بزيامة منصورية التابع لولاية جيجل . كما أنها لم تستفد من التنمية كباقي مناطق البلدية، فالكهرباء لم تصل إلى الدشرة إطلاقا، فضلا على عدم وجود حرف تقليدية أو حديثة، أما الفلاحة فهي جد محصورة بسبب ضيق المساحة الصالحة للزراعة، فالأراضي الواقعة على ضفاف واد عفرة محدودة جدا و أكبر مالك لا تزيد المساحة التي بحوزته عن نصف هكتار. بينما غالبية السكان لا تملك سوى المساحة التي يتربع عليها المسكن المتواضع ومساحة صغيرة لا تتعدى عشرات الأمتار المربعة من حوله. فحوالي الألف ساكن الذين كانت الدشرة تضمهم أغلبهم يعيشون كمهاجرين في العاصمة أو في فرنسا أو في عين الكبيرة يضاف إلى ذلك عوامل الطرد السكاني السابق ذكرها، عامل الإرهاب الذي اتخذ من الدشرة وكرا مفضلا له، فالجماعات المسلحة منذ بداية تموقعها بالجبال و المناطق المعزولة، فضلت المنطقة لعـــدة اعتبارات :

- منـــــاعة المنطقة من الناحية الطبيعية، فهي عبارة عن وادي محاط بسفحين جبلين مرتفعين
- بساطة سكانها و عدم نفورهم منذ البداية من هذه الجماعات، بحيث تتحرك وسطهم كما أدلى بذلك بعض المستجوبين دون تخوف كبير.
- وجود عدد من أفراد هذه الجماعات من أبناء المنطقة حتى و إن نزحوا أو ولدوا في العاصمة، فهم يعتبرون أنفسهم بين أهليهم و ذويهم (14 فردا).
- وجود أهداف على بعد متوسط محيطة بواد عفرة يسهل ضربها ثم الانسحاب، بابور من الجنوب، إيراقن من الشرق ، و زيامة منصورية و الطريق الوطني الحيوي الرابط بين جيجل وبجاية من الشمال.

و بعد استقرار هذه الجماعات شرعت في القيام بأعمال مختلفة مست في البداية المرافق التابعة للدولة و المتمثلة في مرفق وحيد و هو مدرسة ابتدائية مشكلة من 3 أقسام، و حراس الغابات الذين انتزعت منهم وسائلهم الخاصة في صائفة 93 (خنقة الحد).

حيث تعرضت المدرسة للهجوم و أخذت منها لوازم المطعم من أواني و مؤونة. و يقول السيد جمال المكلف بإدارة المدرسة ،أنه عانى الكثير من استفزازات هذه الجماعات التي تدخل إلى

المدرسة في وضح النهار، و تأخذ ما تريد دون خوف، و لم تبق تصرفاتها عند هذا الحد بل أقدمت في إحدى المرات على انتزاع العلم الوطني المرفوع في ساحة المدرسة أمام المعلمين والتلاميذ، ومزقته إربا إربا. و قد شكلت له هذه التصرفات ضغوطات من طرف الدولة بحيث أستدعي مرارا من طرف عناصر الدرك الوطني ببابور و وجهت له أصابع الاتهام على أنه متواطئ مع هذه الجماعات، و كلما حاول تبرئة نفسه لم يستطع إقناع عناصر الدرك الوطني و تعقد الوضع أكثر حينما التحق أحد المعلمين بالمدرسة بهذه الجماعات المسلحة GIA ، حيث أنه كان في بداية الأمر عضوا عاديا تماما ولم تبد عليه أي مظاهر التعاطف معها، بل كان يمقت تصرفات أفرادها وما يقومون به من أعمال ظلم وتعدي ضد سكان المنطقة المساكين،ولكن بعد سنة تقريبا من ذهابه وإيابه عبر هذه الطريق صار يتعرض من جهة لمساومات من هذه الجماعة، وربما يكلف في بعض الأحيان بشراء مستلزمات وغيرها، ونتيجة للاحتكاك تمتنت العلاقة بينه وبينها ، في حين كلما حل ببلدية بابور يتعرض للاستجواب من طرف عناصر الدرك الوطني ويصل الأمر به إلى حد التعنيف والضرب، وظل في هذه الوضعية الصعبة بين مطرقة الجماعات المسلحة وسندان السلطة، فاختار في نهاية المطاف الانضمام إلى هذه الجماعات وصار عضوا نشيطا فيها، وبدأ اسمه يتداول بين السكان يقول السيد جمال ، أنه وبالضبط في 1995 ولما اشتدت الضغوطات على المنطقة بشكل عام وعلى المدرسة بشكل خاص ، توقف عن التدريس كما توقف بقية المعلمين وأغلقت المدرسة أبوابها، أو بالأحرى لم يعد يقصدها التلاميذ لأن أهلهم رحلوا هم كذلك وبالتالي لم يعد هناك مظهر من مظاهر الحياة العادية، فكل شيء ينبئ بأن الوضع يتجه نحو التعقيد والتأزم، ولم يسلم الآخرون من إرهاب هذه الجماعات، وكانت الصدمة الكبرى التي صدم بها سكان الدشرة هي تعرض أربعة شباب استدعوا لأداء الخدمة الوطنية لعملية اختطاف في ليلة واحدة، وذلك في 24 ماي 1994 من طرف ال GIA. حيث تم اقتيادهم على مرأى من عائلاتهم ليلا وسط البكاء والعويل وطمأنوا أسرهم على أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد استجواب ثم يطلق سراحهم، ولكن خروجهم كان نهائيا، فلم يعودوا إلى منازلهم مرة أخرى، وتبين بعد شهر أنهم ذبحوا ودفنوا في إحدى الغابات القريبة من الدشرة، حيث شكلت هذه الصدمة العنيفة التي صدم بها سكان واد عفرة هزة عنيفة، ولم يعد أي أحد قادرا على البقاء ولو لليلة واحدة،

فالدولة ظلت شبه غائبة* عن المنطقة إلى 1997 غاية سنة وهو ما جعل السكان يواجهون مصائرهم بأنفسهم، معتمدين على الله كما صرح بذلك الكثير منهم.

فهم من جهة يتعرضون لابتزاز الجماعات المسلحة التي تفرض من وقت لآخر على كل أسرة دفع مبلغ من المال تقدره هي وترى أنه لا بد من تسديده في آجال محددة، ويعتبر هذا المبلغ بمثابة مساهمة في نفقات الجهاد الذي تخوضه ضد الدولة، وأن الأمر يعتبر واجبا شرعيا على كل فرد أن يؤديه عن طواعية منه أو ينتزع منه انتزاعا بالقوة أو الإكراه ويستندون في ذلك إلى أدلة شرعية مستنبطة من الحديث الشريف: "**من جهز غازيا كان كمن غزى** " وترى أن : الأفراد غير المنخرطين فيها هم بمثابة حربيين، يجوز التترس* بهم في حالة الخطر، وإذا ما قتلوا فسيبعثون على نياتهم، فإن كان عاصيا بعث عاصيا وإن كان مطيعا بعث مطيعا.

أنه يجوز سبي النساء وسلب أموال الآخرين من غير أفراد وعائلات هذه الجماعات، ولذلك تعرض سكان واد عفرة كغيرهم من سكان المداشر والقرى في شتى أنحاء الجزائر إلى ابتزاز من هذا النوع، وإن لم أجد من بين الأشخاص الذين قابلتهم من تكلم لي عن حالات سبي النساء وتعرض شرفهم للدوس والتعدي.

إن أشكال المعاناة الأخرى التي تعرض لها سكان هذه المناطق والتي يمكن تسميتها بخطوط النار، المنع من التدخين فبموجب فتوى شرعية اعتبر التدخين وتناول الشمة سواء في الفم أو في الأنف بمثابة مخالفة شرعية تأتي في مرتبة الحرام وليس مكروها فقط وبالتالي من يضبط وهو يدخن تسلط عليه عقوبة مالية.ومن يتمادى في فعله يصل به الأمر إلى الضرب المبرح أو غيره من أشكال العقوبات وقد تصل بصاحبها إلى حد الإعدام كما جرى في مناطق من الوطن لأناس رفضوا الإذعان لهذه الأوامر. وكذلك الحال بالنسبة للعبة الدومينو والأوراق ، فهي شكل من أشكال القمار، وتكاد تكون اللعبة الوحيدة التي يجتمع عليها الناس في الدكاكين وبعض أماكن التجمع القريبة من المداشر، حيث يجتمعون كل مساء لتمضية الوقت كما يقولون وفي أثنائها يتبادلون أطـــراف الحديث عن مختلف الحوادث اليومية وعن مشاكلهم وقضاياهم المختلفة فدون أن تعطيهم هذه الجماعات البديل الذي يشغل أوقات فراغهم فرضت عليهم الامتناع عن هذا النوع من اللعب.

(*) شبه غائبة : معناه يقتصر التواجد على دوريات تمر في النهار مرة أو مرتين في الأسبوع، أما في الليل فلا يسجل أي تواجد للدولة إلا بعد 1997.

* االتترس : من الترس وهو الذي يضعه المحارب في يده اتقاء ضربات السيف الموجهة من خصمه.

ونعود من جديد إلى إشكال الاغتراب الحاصل في المجتمع والبحث عن طريق الهوية المفقودة[1] وإذا أردنا البحث عن أسباب توجه الشباب المتبني للفكر الإسلامي لأسلوب تغيير واقع المجتمع الذي يعيش فيه واللجوء في النهاية إلى العنف و الاصطدام بالسلطة، التي ترفض هذا النوع من الفكر وتراه خطرا عليها وعلى المجتمع. نجد الأسباب تعود إلى العجز عن الإقناع، إقناع من يتوجه إليه هؤلاء الشباب بالدعوة والالتزام بالإسلام يلجأون إلى العنف لتبرير الفشل وانكسار الطموح الذي ظل يلوح في مخيلتهم كأن يصيروا قادة وأصحاب مكانة ونفوذ في المجتمع. وكان في ظنهم أن العنف يجلب لهم تعاطف بعض الناس من جهة ويرهب المخالفين من جهة أخرى مما يتيح لهم التحكم ويصيرون سلطة تأمر وتنهي في المجتمع، كما إن نقص الحوار وعدم تفهم خصائص المجتمع وقلة الخبرة بشروط التغيير الاجتماعي، كل هذه العوامل دفعت إلى التسرع خاصة في ظرف بدت فيه الأبواب مفتوحة لتبوء مكانة في المجتمع، وعلى الرغم من الشعارات المرفوعة: دولة إسلامية ، القضاء على الظلم وعلى الطاغوت ، والتي تبدو في البداية جذابة ومستحسنة لدى الناس إلا أن النهاية كانت غير ذلك، فما إن أتيحت فرصة للتمكن حتى أنزل بأفراد المجتمع ألوانا من التعذيب والتنكيل، وهذا ما لم يظهر في دعوة النبي عليه الصلاة والسلام ، إذ كان رحيما بالناس يأخذ بأيديهم بتأن وهدوء حتى يدخلوا الإسلام برضاهم واقتناعهم الشخصي . ويمكن تقريب هذه الحركات الجديدة بما ظهر في المجتمعات الإسلامية من حركات شاذة في فقهها وفهمها للإسلام، وقد عرفت بالجماعات المارقة كالأزارقة والحشاشين وغبرهم من فرق الخوارج عن الهدف والصواب كما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم "سيخرج من أمتي على أمتي من يقتل برها ويترك فأجرها يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " وقد توسعت ممارسات هذه الجماعات إلى الإرهاب النفسي وذلك بخلق الخوف بين أفراد الدشرة ليتسنى لها في ظل هذا الجو السيطرة والتمكن فتقوم بتقريب فرد أو مجموعة أفراد منها واستبعاد آخرين لخلق جو من الشك والارتياب فيصير مجرد تصرف بريء مثار شبهة قد يدفع بصاحبه إلى الهلاك ، وهو ما كان مصير حلاق يعمل بمدينة عين الكبيرة، فمن خلال مهنته التي تجعله يتحدث مع زبائنه اعتبرته هذه الجماعات مخبـــرا ينقـــل أخبـــارها وتحركاتها إلى السلطات الأمنية وظلت تتربص به إلى أن أمسكت به فكان مصيره القتل.

(1) د. سهير لطفي : إشكالية هوية الشباب الإسلامي بين الفكر و الحركة في جذور الإرهاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، ج 1 ، ص 64.

ولا يمكن أن نحكم على سلوك مثل هذا إلا بالتطرف، فالتطرف يتسم بشدة الانفعال وفيه كراهية مطلقة للمخالف أو المعارض للرأي والحب الذي يصل إلى حد التقديس والطاعة العمياء لرموز هذا الرأي وشخصية المتطرف اندفاعية وعدوانية تميل إلى العنف[1]. وقد بلغ التطرف حدته إلى أن وصل إلى إرهاب تتقطع منه الأكباد حينما بلغت بعض الأفعال إلى مستوى قتل الرضع وبقر بطون الأمهات الحوامل وذبح أفراد العائلة الواحدة واحدا تلو الآخر على مرأى من بعضهم البعض. وإن لم تعرف منطقة البابور مثل هذه الأفعال فإن جهات أخرى من الوطن عاشتها بكل أسى وحزن.

هذا من جهة الجماعات المسلحة التي حولت المنطقة إلى جهة رهيبة مخيفة فالذي صار شائعا في المناطق المجاورة الآمنة نسبيا أنه كلما ذكر اسم بابور إلا وتبادر إلى الأذهان: التقتيل والاختطاف، الحواجز المزيفة، الأمراء وغيرها، فكل داخل إليها مفقود وكل عائد منها مولود ولم تتوقف معاناة سكان واد عفرة على يد الجماعات المسلحة فقط ، بل أن بعض من رجال الجيش والدرك والحرس البلدي والدفاع الذاتي والمسؤولين الإداريين ممن يعتبرون سكان واد عفرة متواطئين بشكل أو بآخر مع هذه الجماعات وذلك بإمدادها بالمؤونة وما تحتاجه من غذاء ودواء ولباس وتزويدها بالمعلومات الضرورية ، قامت هذه السلطات بفرض إجراءات جد قاسية فانتزعت من البعض سياراتهم الخاصة، فصار التنقل بين واد عفرة و بابور يتم على الأقدام لمسافة 22 كلم ذهابا و إيابا . و يقول السكان أننا صرنا ننقل احتياجاتنا على ظهورنا طول هذه المسافة و الأشد من ذلك المرضى الذين يتم نقلهم بواسطة الحيوانات بمعاناة شديدة. كما صرنا نتعرض كما يقولون ، عند كل نقطة مراقبة عسكرية مقامة على مداخل بابور أو زيامة لتفتيش دقيق و لاستجوابات مزعجة فيتم توقيفنا لمدة طويلة و يجرى علينا تحقيق.

و من القرارات الشديدة التي فرضت علينا من الطرف السلطة العسكرية هو أمرنا بالرحيل نهائيا من القرية و ذلك سنة 1997 ،بحيث وجه لنا ضابط في الجيش هذا الأمر بكل صراحة ووضوح، و دون أي مناقشة و من دون أن تتحمل الدولة مسؤولية في رحيلنا على طريقة – دبرو روسكم- و هو القرار الذي قطع حبل الأمل أمام القلة المتبقية في القرية، و التي لم تجد أي حيلة للرحيل بسبب ضعفها ماديا و معنويا.

---

(1) منصور الرفاعي عبيد : الإسلام و موقفه من العنف و التطرف و الإرهاب، الهيئة المصرية للكتاب، 1993 ص 15-16.

فكل هذه العوامل الضاغطة اجتمعت على سكان واد عفرة و لم تبق لهم فرصة للبقاء في دشرتهم التي فتحوا أعينهم فيها، وترعرعوا بين جنباتها ووسط غاباتها، منها تعلموا بساطة الحياة والعيش الجماعي الذي يطبعه التكافل في الأزمات و الفرح الجماعي في حالة المسرات والمناسبات الجميلة.

فكل اتخذ وجهته فمنهم من اختار الرحيل إلى العاصمة، ففيها يعمل و له فيها عدد من الأقارب وأبناء الدشرة الذين رحلوا من قبل، و منهم من توجه إلى مركز البلدية –سوق الجمعة- والأغلبية منهم استقر بعين الكبيرة بتجمعات - عين أخريب، عين الطويلة، الباهية، أو بعين الكبيرة مركز- وهي تجمعات يمكن تصنيفها إلى صنفين، ذات مستوى راق بعين أخريب – موضوع دراستنا- و أخرى ذات مستوى أدنى بعين الطويلة و الباهية و الفراغات الصحية بعين الكبيرة مركز.

فسكان عين أخريب المقدر عددهم بخمسين (50)عائلة ، 60 % منهم من واد عفرة، تجمعوا على مقربة من بعضهم البعض محاولين بذلك الإبقاء قدر الإمكان على الجو الجماعي و الأسري الذي افتقدوه بواد عفرة تحت ضغط الواقع الجديد القاهر.

فهذا التجمع الذي يبعد عن مركز البلدية –عين الكبيرة- بحوالي 1,5 كلم و قد يصير مستقبلا جزءا من امتدادها العمراني، يقع بمحاذاة الطريق الرابط بين عين الكبيرة وبابور، وهو تجمع يتوفر على بعض المواصفات العمرانية الحديثة، التي تجعل أصحابها يشعرون وكأنهم في حالة الخروج من وضعية التريف*،وهو في توسع مستمر .

نزوح من غير إعداد أو تحضير للمستقبل، وما يحمل من مفاجآت وصعوبات اقتصادية واجتماعية فلا يتوفر سوى على الأمن الذي صار أهم شيء يبحث عنه.

وفي كل الحالات فهو انطلاقة نحو المدينة كشكل من أشكال الهروب نحو البؤس فالأكثر غنى هم الذين يتوفرون على كمية من المال، تمكنهم من ممارسة التجارة، لقد وقفوا تحت ضغط الظروف غير المتوقعة، وليس لهم حظ وفير في الحصول على مناصب عمل بالمؤسسات الصناعية بالمنطقة – كمصنع الإسمنت و BCR .فما هو متاح أمامهم سوى تعليم أبنائهم والحصول على الخدمات الصحية أو بناء مسكن في أملاك الدولة التي تحولت إلى تجمعات سكنية فوضوية.

وسكان عين أخريب هم أكثر حظا من غيرهم حيث سمحت لهم إمكانياتهم المادية الميسورة بشراء قطع أرضية من الخواص ويعود تاريخ الشراء لأول مجموعة إلى ما قبل أحداث

التسعينات وبالضبط سنة 1985 مما يبين أن رغبة السكان في النزوح سابقة لأحداث التسعينات حيث قدرت قيمة المتر المربع بـــ 60 دج بينما وصل المبلغ في منتصف التسعينات إلى 600 دج تحت ضغط الوضع الأمني.

على حد مقولة -مصائب قوم عند قوم فوائد- فملاك الأراضي وجدوا ضالتهم في تلك الفترة الصعبة وكسبوا أموالا معتبرة. فهؤلاء الميسورين أقاموا مساكنهم بطريقة البناء الحديث و بكيفية تتوفر على الذوق الجمالي العمراني ، يفصل بين كل مسكن و آخر مسافة تقدر بعشرات الأمتار كل مسكن محاط بسياج يمثل الحدود المادية والمعنوية (الحرمة) التي يحترمها الجار ولا يتعدى عليها أبدا، هذه المساحة المحيطة بالبيت، وفي الغالب ما يكون في مقدمة مدخل البيت تخصص لزراعة بعض الأشجار المثمرة (حب الملوك، تين، عنب، برقوق) و التي ألف السكان غرسها في واد عفرة، تخصص ثمارها للإستهلاك المنزلي وليس للبيع.

ويضاف إليها تربية من 2-4 نعاج لدى البعض وليس للكل يخصص منها رأس أو رأسان لعيد الأضحى، وبضع عشرات من الدجاج أو الديك الهندي، التي تربى وتسمن لتذبح في بعض المواسم كعاشورة ومحرم، المولد النبوي الشريف، أو بمناسبة رجوع الأب من العاصمة أو من الهجرة بفرنسا، أو الابن بعد غيبة أشهر بسبب أداء الخدمة الوطنية . ويستغل بيضها للأكل في وجبات الغداء وغيرها، ومن النسوة من تبعه قصد توفير قيمة مالية تستغل عند الحاجة، هكذا ينظم الاقتصاد المنزلي البسيط.

وتنظم الحياة والعلاقات الاجتماعية بين الجيران كما لو أنهم ما زالوا في واد عفرة، فخروج النسوة لممارسة بعض الأشغال الفلاحية أو الخدمات المنزلية أمر عادي ولا يثير حساسية لدى أحد، بينما في غيرها من التجمعات لا يمكن للمرأة أن تخرج إلا لضرورة ملحة، متلحفة أو منقبة مع أحد محارمها، ويتبادلن الحديث فيما بينهن عن سائر القضايا كل أمام بيتها، بينما إذا خرجت لمهمة خارجية فلا بد من أن تتلحف وأن تتنقب بينما الفتيات من دون الثلاثين وخاصة اللائي يدرسن فخروجهن يكون بالحجاب أو بلباس أوروبي (civilisé).

أما الأسر التي يوجد رب العائلة بعيدا عن البيت بسبب العمل بالأخص، فهو مطمئن على وضعية عائلته ما دامت وسط الأقارب و أبناء الدشرة، فإن حدث مكروه أو مرض فرد أو أمر يتطلب التدخل، فلا يبخل الجيران بمساعداتهم كما يؤكد ذلك الحواس الذي يعمل بناءا بالعاصمة ولا يعود لتفقد بيته إلا بعد شهر أو أكثر من ذلك،أنه مطمئن تماما على عائلته فمنذ رحيله سنة

1996 و هو على هذه الوضعية و يحمد الله أن أبنائه الصغار صاروا كبارا و بإمكانهم تحمل أعباء البيت بمفردهم.

كما أننا و لو قررنا العودة فالأطفال الذين ولدوا هنا، لن يذهبوا معنا فحياتهم انطبعت وفق المحيط الجديد، و الثقافة التي صاروا يحملونها لا تتجاوب مع محيطنا القديم، كما أن تفاعلهم مع المحيط الاجتماعي الجديد أدى بهم إلى تكوين قواعد مشتركة و معايير للسلوك تتناسب مع ما ألفوه و تعودوا عليه.[1]

فـــ"الحواس" 46 سنة يعمل بشركة بالعاصمة يقول عن أولاده الذين ولدوا في واد عفرة بأنهم لم يعرفوا الكهرباء و التلفزيون إلا بعد رحيلنا إلى عين الكبيرة، فإذا عدنا لواد عفرة فلن يجدوا هذه الأشياء فكيف يمكنهم الرجوع مرة أخرى، فهذا غير ممكن تماما أما بالنسبة لي فالوضع أحسن هنا مادمت أعمل بالعاصمة و أفراد أسرتي في أمن هنا وسط أبناء الدشرة.

درجة تثاقف سكان عين أخريب مع سكان المحيط الجديد :

من خلال المقابلات التي أجريتها مع سكان واد عفرة تبين من خلال تصريحات الأغلبية منهم عدم رغبتهم الكبيرة في توسيع مخالاطاتهم مع سكان عين الكبيرة و السبب يعود إلى اختلاف العقليات كما يقولون، و أن أغلب المخالطات فشلت. فهذا "السعيد" 30 سنة يقول بأنه أعار مبلغا ماليا لواحد من عين الكبيرة فلم يعده له و نفس الشيء جرى مع مجموعة أخرى .إن معاملات سكان المدن فيها كثير من الاحتيال و صعبة للغاية فبالتالي تكون مع أبناء الدشرة أحسن لأننا نعرف بعضنا البعض كما ينبغي.

أما الشيخ "مسعود" 66 سنة، مجاهد فيرى أن علاقاته عادية جدا و ليس له أي مشكل اتصال أو فهم ثقافة الآخرين وكذلك الحال بالنسبة لـــ"علي" 46 سنة معلم، فهو ليس له أي مشكل في الاتصال و يعود السبب كذلك إلى ثقافة الفرد و طبيعته و البيئة التي عاش بها فالانغلاق يعتبر مشكلا أساسيا في عملية الاتصال.

كما أن النظرة الأولى أثناء قدومنا إلى عين الكبيرة و التي حملها علينا سكان عين الكبيرة والمتجلية من خلال كلامهم و النعوت التي ينعتوننا بهاـــ كإرهابيين و أصحاب الجبل و البرية

(1) علي عبد الرزاق حلبي : المجتمع، الثقافة و الشخصية، دار النهضة العربية، ص 14.

فهذا "محمد" يحكي حادثة مؤلمة ألمت به، حيث يقول أنه أثناء قدومنا سنة 1997 تعرضنا في العديد من المرات إلى إهانات من طرف الأمن ، بحيث أحاطوا بالمسكن من كل جانب، و على مرأى من جميع الناس ثم يقومون بمساءلتنا دون أي سبب وجيه، فهذه التصرفات كرست نظرة الاحتقار و الدونية من طرف الجيران إلينا ، حتى صرنا فعلا نشعر بالمذلة و بأننا لسنا كالناس العاديين. أما فيما يخص اتصالاتنا بالجيران فهي منعدمة تماما بينما أمر الأطفال لا نتصرف فيه، أما نحن الكبار لا نملك القدرة على الاتصال معهم ما عدا إلقاء السلام.

إن هذا الأمر لم نتعود عليه في الدشرة، فكنا نجلس و نبسط مع بعضنا البعض و نتبادل أطراف الحديث في كل الأمور دون أي حرج، لقد ضيعنا شيئا عظيما يقول البعض و لا يمكن أن نجده هنا من جديد.

و مما يلاحظ كذلك على تصرفات و علاقات سكان تلك المناطق هو تجمعهم في أماكن مخصصة ، وخاصة المكان المسمى "بئر خادم" و هو تشبيه لبئر خادم بالعاصمة التي يجتمع فيها سكان منطقة بابور، هذا المكان عبارة عن ملتقى طرق فيه بعض المقاهي، يلتقي فيها هؤلاء السكان حينما يقصدون عين الكبيرة قادمين من التجمعات المجاورة، يجلسون مع بعضهم البعض مساءا مقدار الساعة أو نصف ساعة ثم ينصرفون. هذا بالنسبة للشباب، أما الشيوخ فقدومهم يكون في الفترة الصباحية أما في المساء فيكونون أمام بيوتهم يؤدون خدمات عادية.

بين البقاء و العودة إلى واد عفرة ليس الاختيار سهلا :

إذا طرحت هذا السؤال على كل الذين قابلتهم، غالبيتهم لا يجيبك بسهولة فبعد أن يخوض بك في الأسباب الكثيرة و الحيثيات التي أدت به إلى النزوح، كالعوامل الأمنية و العزلة و انعدام فرص العيش الكريم و التفكير في مستقبل الأبناء الذين لا يجب أن يدفعوا ما دفعنا نحن من ثمن.

فيجيبك بأن العودة النهائية غير ممكنة مرة أخرى، فباستثناء قلة تقدر بأربع أو خمسة من العشرات الذين طرحت عليهم هذا السؤال، فالعودة مربوطة بعودة المجموعة و ليس بإمكان قلة أن تقهر الظروف الطبيعية القاسية، و ليس بإمكانها أن تصنع الجو لوحدها بين تلك الوديان المخيفة والغابات الكثيفة، و تقهر الخوف الذي و إن قل مع قلة المجموعة المسلحة فإن أثره المعنوي لن يذهب ربما بعد عشر سنين كما نتصور.

كيف توزع سكان واد عفرة النازحون :

من خلال جلسة استذكار قمت بها مع أحد الأفراد النازحين الذي تربطني معه علاقة صداقة خاصة. تمكن من استعراض وضعية ما يقارب 70 عائلة ممن استطاع تذكرهم و بقي آخرون، أبرز الأشخاص بأسمائهم و ألقابهم و المناطق التي نزحوا منها.

و يأتي في طليعة المناطق المستقطبة، عين الكبيرة التي توزع عبر تجمعاتها السكنية هؤلاء الأفراد و فيهم من سكن داخل المحيط الحضري للمدينة، عددهم 34 عائلة بينما 24 عائلة توجهت نحو العاصمة متخذة من ضواحيها مستقرا لها، كـــ لخرايسية، بئر خادم، الدرارية حيث يتواجد سكان من المنطقة سبق و أن استقروا هناك منذ الاستقلال فكانوا هم من بمثابة نواة تجميعية تجمع حولها النازحون المتأثرون بالوضع الأمني . و قد ساعدهم انخفاض أسعار السكنات و الأراضي بسبب التدهور الأمني الكبير الذي عرفته منطقة المتيجة في منتصف التسعينات. بينما استقر 7 فقط بمركز البلدية بابور التابعين لها، تحصلوا على سكنات اجتماعية و بعضهم اجتهد بمفرده للحصول على سكن و الهروب من جحيم الموت و الخوف، بينما اثنان انتقلا إلى أميزور بولاية بجاية.

النزوح شتت العائلات الممتدة :

أكبر العائلات في واد عفرة انقسمت إلى 19 أسرة فالأبناء كل واحد أخذ زوجته و أبناءه و توجه إلى وجهة يراها أنسب له ربما لأن شغله مرتبط هناك أو تسهيلات حصل عليها، فمن مجموع 19 عائلة، 12 منهم نزحوا إلى العاصمة و 5 استقروا بعين الكبيرة و 2 في بلدية بابور. و بالتالي لم تعد هذه الأسر تلتقي إلا في مناسبات خاصة جدا كعرس ، أو وفاة ، أو عيد الفطر أو الأضحى، بينما خلال سائر أيام السنة كل منهمك في شغله و منحصر في محيطه الجديد ، و لم تعد تلك الأيام التي جمعتهم في واد عفرة إلا مجرد ذكريات يتذكرها سكان واد عفرة حينما يجلسون إلى بعضهم البعض.

و نفس الوضعية لعائلة كبيرة أخرى انقسمت إلى9 أسر، 5 منها اتجهت نحو العاصمة و اثنان اتجهتا نحو عين الكبيرة و إثنان بقيتا في بابور مركز.

الزواج بين أبناء الدشرة فقط !

يعتبر الزواج أحد وسائل التبادل بين الأفراد و المجتمعات و التي تبنى عليها القرابة ويتحقق التعارف بين الناس و يستمر النسل البشري ، و هي ظاهرة اجتماعية. و الزواج يهدف إلى تحقيق التواصل بين الأفراد كما يهدف الكلام الدال عليه إلى تحقيق التواصل كذلك.[1]

و مازال الزواج يخضع إلى كامل المراسيم و الطقوس المعروفة في الريف الجزائري وبالأخص في القبائل الصغرى، فتزويج الابن و البنت يجب أن يتم في عمر مبكر حرصا على توفير الستر الخلقي سواء للابن أو للبنت. فإذا تجاوز الذكر سن الثلاثين فمعناه أنه تجاوز حدود التقاليد والعرف المتعارف عليه منذ أجيال.

و يلاحظ أنه و تحت ضغط الظروف الحالية و التقاليد التي تجعل توفر المسكن اللائق المنفصل عن الوالدين و الشغل المحقق للاستقلالية الاقتصادية أو أي حرفة أخرى تحقق نفس الهدف والزوجة التي يختارها الزوج بمفرده و حسب ذوقه و ميولا ته، هذه التقاليد التي يسير عليها شباب هذا العصر، رغم هذه العوامل المستجدة و المؤثرة على تفكير الشباب، فإن شباب واد عفرة مازال بعيدا عن تأثيراتها فزواجه و التفكير فيه ينطلق من العائلة ، فالوالدان أو أحدهما هو الذي يقترح الزوجة التي تكون من بنات الدشرة بطبيعة الحال . و حالات الزواج لم تخرج عن نطاق الزواج الداخلي (القرابي) كما يسميه الدكتور "كريم حسام الدين".

حالات الزواج المسجلة ضمن دائرة أبناء الدشرة :

1- ابن الخـــالة مع بنت الخـــالة.

2- ابن العم مع بنت العم.

3- ابن العم مع بنت العم.

4- مع أقارب من الدشرة.

5- مع أبناء الدشرة.

6- مع أبناء الدشرة.

حالة واحدة لبنت من واد عفرة تزوجت مع شاب من خارج محيط الدشرة .

---

(1) كريم زكىحسام : اللغة والثقافة، دار غريب ،القاهرة ،ص 9 .

التجمع السكني أولاد علي :

هو تجمع سكني ريفي يقع على بعد 2,5 كلم شرق بلدية أولاد عدوان، التابعة لدائرة عين الكبيرة وهي من الدوائر الشمالية لولاية سطيف.

يقع على السفح الجنوبي لجبل بن زغيب وسهل مرج الصيد الخصب، يبعد عن الطريق الولائي الرابط بين عين الكبيرة وسطيف بـــ 1,5 كلم يتكون من حوالي 40 مسكنا، و60 عائلة، من العائلات النازحة من البابور وهو في حقيقة الأمر تجمع قديم، إذ هو جزء من عرش أولاد علي بن ناصر الممتد من بلدية عموشة إلى بلدية بني فودة، كما توضحه خريطة قبائل الشرق الجزائري لسنة 1863، وفي فترة الثمانينات شهدت نزوحا لسكانها القدامى الذين يتشكلون من عائلتين ، نزحوا إلى غير بعيد من الدوار، ليستقروا بجانب الطريق المعبد، والبعض منهم نزح إلى التجمعات الحضرية كمقر البلدية أولاد عدوان أو الخربة أو إلى عين الكبيرة، والقليل منهم نزح إلى مدينة سطيف ولم يبق منهم سوى فرد واحد، انتقل من مقر سكناه القديم بحوالي 20 مترا، أما النازحون من البابور فعلاقتهم بدوار أولاد علي تعود إلى 1978 حينما انتقلت أوائل العائلات أو استقرت هناك . ثم تبعتها عائلتان مع بداية الثمانينات، وبذلك شكل هؤلاء أول نواة من السكان لبابرية* كما يسمون أنفسهم في هذا المحيط الجديد عليهم، باعتبارهم يتكلمون اللهجة القبائلية التي تعد غريبة في منطقة أولاد عدوان وغير سائدة لدى سكانها، ويعتبرون بطبيعة الحال بمثابة غرباء وافدين، فالعلاقة معهم محدودة ومجال التعامل معهم لا يجب أن يتعدى الجانب المظهري.

الأزمة الأمنية تزيد من النزوح نحو أولاد علي :

أدت الأزمة الأمنية التي عرفتها منطقة البابور مع مطلع التسعينيات إلى إحداث هزات اجتماعية عنيفة لدى سكان البابور، ودفعت بسكان المداشر الواقعة على السفح الجنوبي للبابور وهي مجرقي، تاقليعت، سطاح السان إلى النزوح نحو أولاد علي بالخصوص. لأنه حسب ما أفصح به العديد ممن قابلتهم، عندما سألتهم عن سبب اختيارهم لدوار أولاد علي عن بقية المناطق التي توافد إليها النازحون ، أن السبب يعود أساسا إلى البحث عن الاستقرار والمجال الذي يجدون فيه تجانسا اجتماعيا، وبالتالي يعوضون ما افتقدوه في البابور بما هو مقارب له في بلدية أولاد عدوان.

(*) لبابرية : نسبة إلى سكان البابور.

وتجد كثيرا من المظاهر والعلاقات الاجتماعية القائمة تدل على أن هؤلاء السكان يحاولون الحفاظ قدر المستطاع على مكاسبهم الثقافية وعلى العادات التي تعودوا عليها في مقر إقامتهم القديمة البابور.فالمساكن متباعدة عن بعضها البعض بعشرات الأمتار وهذا بين عائلتين تختلفان في اللقب بينما تتلاحم وتتقارب إلى بضعة أمتار بين الإخوة وأبناء الأعمام.

وتفصل حدود فاصلة بين المساكن سواء أسلاك شائكة أو جدران مبنية بالصخور على علـــو 1 متر، ويجب احترام هذه الحدود وعدم تعديها من أي طرف، فهي علامة حرمة ورمز ذو قيمة معنوية كبيرة.

ويختلف الوضع بالنسبة لهؤلاء السكان، فالفئة التي لها إمكانياتها الاقتصادية تمكنت من شراء مساحات على أرض زراعية مناسبة، والفئة المعدمة تقيم على أرض جبلية تابعة للدولة لم تدفع أي ثمن مقابلها، واستوطنت هناك تحت صمت السلطات البلدية التي تفهمت وضعية هؤلاء النازحين والظروف القاهرة التي دفعتهم إلى ترك منازلهم. ويقول بعض ممن قابلتهم أنهم تعرضوا إلى محاولات توقيف عن البناء من طرف الدرك الذين سحبوا منهم بطاقات التعريف وقاموا بمساءلتهم، ربما للتعرف على وضعية كل واحد منهم، والوقوف على الأسباب الحقيقية التي دفعت بنهم للنزوح.

ثم بعد ذلك لم تعد مثل هذه التصرفات تحدث الآن ،ومازالت مساكن خمسة منهم متواضعة جدا فهي مبنية بطريقة توحي وكأن أصحابها ينوون العودة إلى مداشرهم القديمة، وعن التعمق في معرفة وضعيتهم تبين أنهم فقراء. بينما البقية فمساكنهم مبنية بطريقة حديثة، وحوالي عشرة منهم ،مساكنهم على الطابق الأول والقلة قامت بتزيينها خارجيا بالطلاء .

أما عن نظرة السكان والسلطات المحلية إليهم أثناء نزوحهم، فيجيب الكثير منهم أنها كانت خاطئة وفيها كثير من الشكوك، بحيث نسمع من حين لآخر كلمة لبابرية وفيها كثير من الاستهزاء والبعض يعتبروننا إرهابيين أو بأننا سننقل الإرهاب معنا إلى هنا، وبالتالي ظلت المعاملات لعدة سنوات يكتنفها التحفظ والتخوف، فكل في حده كما يقولون، أما الآن فقد تغيرت النظرة ومع مرور الزمن تبين أننا ضحايا لأزمة حادة.

و عن موقف المسؤولين فقد تغير نوعا ما، حيث كانوا يعتبروننا خارج دائرة اهتماماتهم و أن بلديتنا الأصلية هي الأولى بالاهتمام بنا، و أبرز ما تسمع منهم قولهم أنكم بنيتم بناءا فوضويا! وبالتالي لا تنتظرون شيئا، لكن مع مرور السنوات تحصلنا على المياه الصالحة للشرب بعد أن تم ربط مساكننا بقناة المياة المتجهة نحو مقر البلدية. و استفاد الجميع من المياه و أما الربط

بشبكة التطهير فقد استثني منه بعض السكان المتأخرين في المجيء و البعيدون نوعا ما عن التجمع السكني . و كذلك الحال بالنسبة للكهرباء فلم يتمكن البعض من إيصال الكهرباء إلى بيوتهم نظرا لارتفاع التكلفة التي قدرتها شركة سونلغاز بسعر باهض، فسعر عمود واحد من الكهرباء يقدر بـــ 10 ملايين سنتيم. و ليس بوسع هؤلاء السكان دفع تكلفة تصل إلى 20 مليون سنتيم أو أكثر. أما الطريق الذي تربط التجمع بالطريق الولائي فهي مقترحة لأن تعبد مع حلول الصيف القادم لسنة 2004 بعد أن أنجز منها شطر إلى غاية قرية لمناصرة يصل إلى 500 متر.

التضامن ما زال بيننا كما كان من قبل :

يعترف جميع سكان أولاد علي أنهم يشكلون وحدة اجتماعية متجانسة و دائرة ثقافية واحدة ، حيث أنهم جميعا من جهة واحدة لهم نفس التقاليد و الأعراف و الممارسات الاجتماعية رسخت في ذاكرتهم الجماعية منذ أجيال، فهم تعودوا على التضامن مع بعضهم البعض في الأوقات التي تتطلب التضامن مع المحتاج منهم، فهم على سبيل المثال اتفقوا على جمع نصيب من المال و قاموا بتزويج أحد الأفراد توفيت زوجته و بقي أبناءه الصغار دون رعاية.

و اتفقوا على تخصيص صندوق مشترك ساهموا به في تفريش الطريق بالحصى كي يمكن التنقل عليها في الشتاء. و كذلك الحال بالنسبة لتوصيل المياه الصالحة للشرب حيث أعين غير القادرين بما أتيح من إمكانيات لتوصيل المياه إلى منازلهم و لم يبق و لو فرد واحد دون ماء.و مازلنا يقول البعض محافظين على إقامة الوزيعة و هي الاشتراك في شراء مجموعة من الأغنام أو عجل ثم يوزع بين أفراد الدوار، و من لم يستطع دفع المبلغ أثناء الشراء لا يحرم أبنائه من الوزيعة و يجب أن يأخذوا نصيبهم كالجميع ، و يبيت كلهم فرحين و حتى أولائك الذين يعملون في العاصمة أو في الخارج فإن عائلاتهم تحض بالمساعدة و لا يمكن أن يمسها مكروه من أي شخص أجنبي ، و إذا احتاجت إلى المال تتلقى يد العون إلى غاية رجوع رب الأسرة فيتولى أمر بيته.

اللهجة القبائلية بين البقاء و الزوال :

تمثل اللغة أحد أهم المقومات التي تحدد هوية المجتمعات الإنسانية.[1] و سكان دوار اولاد علي يمثلون وحدة لغوية متميزة عن المحيط الجديد الذي يعيشون فيه و حتى عن محيط منطقة البابور كما سبقت الإشارة إلى ذلك في فصل الحياة الثقافية و الاجتماعية.

سكان اولاد علي كلهم يتكلمون القبائلية كما يسمونها و هي جزء من موروثهم الثقافي المعرض للزوال. فالعلاقة الواضحة بين اللغة و المحتوى الثقافي لا تعني شيئا أكثر منه أن للغة أساسا ثقافيا. وأنها بهذا المفهوم نظام يلتزم به أفراد المجتمع كما أنها نوع من السلوك الاجتماعي مثل أي ظاهرة اجتماعية أخرى تتكون ضمن إطار ثقافة ما.[2]

ومازال الكبار و إلى حد ما الشباب يتكلمون بها فيما بينهم ، و يستعملونها كأداة مفضلة للتواصل وفقا للاتفاق العرفي و الاصطلاحي، و يجدون في ذلك الاستعمال تعبيرا عن الذات المعرضة للذوبان أمام المتغيرات الجديدة ، بل ويجدون تعبيرا عن لذة داخلية كما يقولون.و يكونون أكثر انبساطا لبعضهم البعض و تجانسا في المشاعر و الأفكار.و يحاولون المحافظة على هذا المكسب بالإضافة إلى اللغة العربية التي يتكلمون بها بطلاقة و دون أي تلكأ أو تلعثم أو رطانة مثل ما يبدو على سكان القبائل الكبرى حينما يتكلمون بالعربية.

أما الأطفال الصغار الذين يدرسون في المدرسة أين يسود استعمال اللغة العربية سواء داخل القسم أو خارجه نتيجة وجود أطفال يتكلمون العربية فقط. هؤلاء الأطفال الذين ولدوا في المحيط الجديد أو قدموا وهم صغار، بدا أغلبهم يترك اللهجة القبائلية و لا يتكلمون بها حتى و لو يستعملها آباؤهم داخل البيوت، و فيهم من لا يعرف حتى معاني الكلمات. بينما البعض يتكلم بها ويفهمها كما ينبغي. و هنا يطرح السؤال: ما السر في محافظة بعض الأسر على هذا الموروث وتخلى البعض عنه؟ بالرغم من أنهم عاشوا نفس الظروف تقريبا هنا وهناك معا بطبيعة الحال ؟ الإجابة على هذا الإشكال صعب لكن ما يمكن الوقوف علية هو أن اللهجـــــة القبائلية هي في وضع التراجع و التخلي عن دورها كأداة للتواصل لصالح اللغة العربية، وبعد فراغ مداشر البابور الناطقة باللهجة القبائلية من السكان و امتزاجهم بالناطقين بالعربية، فهم أمام وضع قد يتخلون فيه مستقبلا عن هذه السمة الثقافية المميزة لهم ، كما أنهم مجبرون على التخلي عن الكثير من العادات و القيم و الأعراف التي ظلت تنظم حياتهم ، بسبب الصعوبة التي يجدونها في المحيط الجديد المعقد و المختلف عنهم .

---

1) د. كريم زكي حسام الدين : اللغة و الثقافة، ص .11

2) نفس المرجع، ص 11.

العودة إلى البابورغير ممكنة مرة أخرى؟

رغم تحسن الوضع الأمني بعد العملية العسكرية التي قام بها الجيش الشعبي في خريف 2003، و تناقص الكلام عن تحركات أفراد الجماعات المسلحة على الجهة الجنوبية للبابوررغم ذلك، فالسكان أغلبهم لا يرغب في العودة تماما مما يطرح التساؤل: هل الوضع الأمني هو السبب الوحيد الذي دفع بهؤلاء نحو النزوح؟ إذا سلمنا بأنه سببا رئيسيا، فلماذا لم يعد السكان بعد تحسن الوضع الأمني و اكتفاؤهم بالذهاب لتفقد منازلهم و بساتينهم لبضع ساعات من يوم عطلة الجمعة ثم العودة.

إذن هناك أسباب كثيرة دفعت بهم إلى الرحيل و قد أباح بها بعض من قابلتهم. فـــ"علي" الذي قضى أكثر من عشرين سنة يقطع مسافة 100 كلم بين الذهاب و الإياب للعمل في سطيف ثم العودة للمبيت يتساءل لماذا أبقى هناك مادام مصدر رزقي مرتبط بسطيف ؟

يجب أن أرحل و قد قررت سنة 1995 رغم أني بنيت مسكنا جيدا في مجرقي.و عن الأبناء هل يفكرون في العودة؟ إن أغلبهم لا يرغب في العودة بعد أن بدأوا يتجانسون مع المحيط الجديد و صاروا مع مرور الأيام يرون أنفسهم هنا أحسن من هناك، حتى الذهاب لرؤية الدشرة لا يشكل أي اهتمام لديهم، فـــ"مسعود" الذي يعمل معلما بإحدى المدارس غير البعيدة كثيرا عن دشرته يقول : « إني لا أريد الذهاب لرؤية منزلي لأني أزداد توترا و تأسفا والأمر محزن كثيرا لما يرى الإنسان البيت الذي ترعرع فيه على تلك الصورة المؤلمة ». فما بالك بالشباب الأقل سنا منه فهم لا يذهبون تماما. إنها مأساة حقيقية عاشها هؤلاء السكان البسطاء الآمنيين.

عادات ضاعت و أخرى ما زالت تقاوم من أجل البقاء :

إن ارتباط الإنسان بالعادات و التقاليد فطري، و يشكل جزءا أساسيا من كيانه و بناءا ضروريا في ثقافته.هؤلاء السكان الريفيون هم بمثابة مخزن ثمين لكل عادات و تقاليد الريف الجزائري.

فالحفلات و طقوس الزواج و الموت و غيرها تمثل بالنسبة إليهم سلوكا مشتركا لا يجب أن يحيد عنه أحد. فقد ظلت حفلاتهم في مداشرهم القديمـــة تحـــيا بكيفيـــة تخصهـــم كحضـــور –الفصحى- و يقصدون بها الفرق الفلكلورية التقليدية التي تستعمل الطبل و المزمار و البراح كعناصر أساسية في إحياء حفلاتها الليلية، بدأت تختفي بزوال الفرق المحلية و صارت الحفلات تقام بطريقة أخرى ليس فيها مثل هذا النوع من الفن الشعبي و عوضتها الأجهزة الصوتية كما هو شائع الآن. و يستثنى من ذلك حفل واحد أقيم في صائفة 2003، استقدمت فرقة فلكلورية

ولكن من منطقة أخرى.و دفن الموتى الذي يتم بطريقة خاصة، فكل دشرة لها واليها و مقبرتها لم يعد ممكنا الآن في المحيط الجديد فجميع من توفوا، دفنوا في مقبرة الشيخ مسعود التي يدفن فيها أغلب سكان عين الكبيرة و أولاد عدوان.

أما عن الزواج ما زال يتم بين سكان هذه المداشر المتجمعة في اولاد علي، فكل الحالات التي تمت كانت ضمن هذا الإطار، و سجلت أربع حالات زواج فيها أربع نساء من القبائل الكبرى حيث لا يشترطون مهرا مرتفعا كبقية المناطق . أما علاقات الزواج مع سكان المحيط الجديد فلم تسجل أية حالة.

نظام القرابة بين سكان أولاد علي :

يتألف التجمع السكني الجديد هذا من 60 عائلة يتفرعون من 19 عائلة لكل لقبها الخاص بها، غير أنهم في الحقيقة يرتبطون ببعضهم البعض بعلاقات قرابة بدرجات متفاوتة منها ما هو ضمن الدرجة الأولى والدرجة الثانية والثالثة.

بينما 5 عائلات من سكان التجمع ليست لها أي علاقات قرابة مع هؤلاء السكان وإنما تجمعها نفس الجهة .

امرأة إلى جانب ضحايا الإرهاب :

بعد أن ذاقت الآلام كبقية الآلاف من الأسر الجزائرية وفقدت أخاها الضابط في الجيش الوطني الشعبي. فتلك الصورة الأليمة التي ارتسمت أمام عينيها عن أخيها المضرج في دمائه بعد أن تعرض إلى ضربة قاتلة بالسلاح الناري اكتوى قلبها بنار القتل والظلم والتعدي، ازداد تعاطفها أكثر من المتضررين من الإرهاب نفسيا وجسمانيا و مع الأيتام والأرامل.

كما أن لها من قبل شحنة من العطف اتجاه الفئات الضعيفة، بحكم عملها كمساعدة اجتماعية هذه المهنة التي قضت فيها إلى غاية (2003) ثلاثة وعشرون سنة، تعلمت من خلالها أن خدمة المستضعفين والمحتاجين وغير القادرين على تجاوز صعوبات الحياة يمثل أفضل عمل في حياتها.لأنها كما تقول عطوفة ورحيمة بطبيعتها ولأن الدين الإسلامي يحث على مساعدة هذه الفئات قصد نيل الأجر والثواب من الله عز وجل. إذن هي امرأة متواضعة الحال، تحصل على قوت أولادها من عملها بأحد المراكز الصحية بسطيف، مبتسمة بشوشة تقابل كل من يقبل عليها بابتسامة عريضة تدل على سعة قلبها وتغلغلها في قلوب الناس، فلا ينظرون إليها إلا وهم قاصدون لخدمة، كالحصول على الدواء أو وسيلة طبية أو القيام بوساطة تسهل لهم إجراء عملية جراحية أو افتكاك موعد (Rendez-vous) لدى طبيب مختص كثرت عليه طلبات المرضى أو غيرها من الحاجات.

غير أن الفئة المتأثرة من الإرهاب أخذت منها الاهتمام الأكبر، فبحكم أنها أحد ضحاياه فقد عرفت المعاناة الحقيقية وأدركت أن الوقوف إلى جانب عائلة أصيبت في القائم عليها وهو الأب من شأنه أن يحقق الاستقرار لهذه العائلة، ويجعل الحياة لديها مستمرة ولن تتوقف، خاصة في ظل فتنة اجتماعية طاحنة تركت الناس جميعا في حيرة من أمرهم، ذاهلين لا يدرون ماذا يفعلون.ولها قصص مع عائلات كثيرة كانت لها سندا نذكر منها واحدة : حيث قتل الأب واختطفت بنتان بينما بنت أخرى أدخلت المستشفى بعد أن صدمت من جراء ما رأته يحدث لأفراد عائلتها، وبقيت الأم التي أصيبت بجروح في بطنها تعاني من السرطان إلى أن توفيت منذ سنة و نصف، فهذه العائلة المتكونة من سبعة أفراد لم يتبق منها سوى طفلان تركا المدرسة بعد وفاة الأم وفتاتان اختطفتا والأخرى بقيت في المستشفى .

هذه الأسرة التي انتقلت إلى المدينة صعب عليها التكيف مع طبيعة الحياة السائدة فيها، وهي سطيف عانت كثيرا من الصدمة وصارت مهيأة للتمزق والتشتت بين حين وآخر. فجعلني الله كما تقول من بين الذين ساعدوا هذه الأسرة سواء في إيجاد المسكن أو إدماج الأطفال في

المدرسة وتوفير متطلبات الحياة من غذاء وملبس لأفراد العائلة لفترة ثلاث سنوات كاملة.وبعد وفاة الأم عاد الأطفال إلى أقاربهم بعد أن تركوا المدرسة واتجهوا نحو تناول المخدرات وتفسخت أخلاقهم.

- وعن حالة أخرى لرجل أصيب في عينه نتيجة تطاير الشظايا بسبب انفجار قنبلة ، تلقى تكفلا صحيا فيما يتعلق بالجروح الطفيفة التي أصيب بها جسمه، بينما الإصابة التي تعرضت لها عينه تتطلب عملية جراحية دقيقة، ولقد بقي المصاب مدة أربعة أشهر يعاني من الإصابة، و بعد أن علمت بوضعيته قمت باتصالات و مجهودات كبيرة حتى وفقت في ضبط موعد لإجراء عملية جراحية على العين، وقد طهرت من الشظايا الموجودة بداخلها و تخلص على الأقل من الألم الحاد بعد أن فقد بصره. و كثيرة هي الخدمات التي قدمتها للأطفال اليتامى و المجروحين و المصدومين حيث أبذل أقصى جهد لأوفر لهم ما يخفف من صدماتهم و مآسيهم. و صرت معروفة على مستوى الولاية و على المستوى الوطني و حتى الدولي بعلاقاتي ومعرفتي بوضعية ضحايا الإرهاب، و كنت من بين الذين رافقوا وفدا عن المنظمة العالمية للصحة قام بزيارة لمختلف أنحاء الولاية للإطلاع على حالة ضحايا الإرهاب.

و إجابة عن سؤال: هل وجدت هذه الفئة العناية الكافية من طرف الدولة و من طرف المجتمع؟ تجيب: « أن ما تلقته من عناية يعتبر قليلا جدا و خاصة الأطفال و النساء، هاتين الفئتين الضعيفتين في المجتمع، فالأطفال يودعون في مراكز خاصة و هذا العدد قليل جدا، بينما الكثير منهم الذين يعيشون في المناطق الريفية البعيدة و الذين ليس لديهم من يتولى أمورهم فأوضاعهم مأساوية جدا و هم عرضة للضياع و تتنازعهم الآفات العديدة، من فراغ و تسرب من المدرسة و تناول للمخدرات و تعلم الممارسات و الأخلاق الوضيعة و الهابطة ».

فلا المؤسسات التي أوكلت لها الدولة مهمة التكفل بهذه الفئة و من بينها منظمة ضحايا الإرهاب و مديرية النشاط الاجتماعي و حي الطفولة و غيرها. تحملت مسؤوليتها كاملة اتجاه الأطفال الأيتام في نظر السيدة المساعدة الاجتماعية فهي لا تتولى القيام بمساعدة هذه الفئة و الوصول بها إلى شاطئ الآمان فقط بل تقوم بأعمال ظرفية لا تصل إلى تحقيق الأهداف كاملة.

- و عن سؤال: هل تجدين أثناء القيام بعمل المساعدة لهذه الفئة سهولة أم أن هناك عدة صعوبات؟

« إن طبيعة عملي و تعاملي مع شرائح اجتماعية عديدة جعلني أقوم بعملي بصفة عادية، و لا أتخوف من طرح قضايا كثير من الناس يتخوفون من التعامل معها خاصة لما كان الوضع الأمني متدهورا جدا و الجميع بقي مذهولا أمام ما يحدث.

أتقدم أمام المسؤولين في مختلف المستويات لأطرح أمورا في غاية الحساسية و ألاقي معاملات مشجعة في بعض الأحيان و في أحيان أخرى تبعث على اليأس حينما أجد نفسي أدور في حلقة مفرغة و أعامل ببيروقراطية تزيد عن حدودها.

و رغم ذلك لم أستسلم و أظل أطرق الأبواب،و الحمد لله كلما أنغلق باب في وجهي إلا و انفتح باب آخر من أناس طيبين محسنين يحبون الخير لإخوانهم كما يحبونه لأنفسهم ،المهم أن يرضي الإنسان ضميره بعمل خيِّر يحس أنه قدم خدمة لغيره و خفف من آلام أناس وجدوا أنفسهم فجأة أمام نكبات و مصائب كبيرة ، تفاقمت طيلة مدة العشر سنوات الأخيرة و التي أطلق عليها اسم – المأساة الوطنية-.

و عند سؤال: لماذا نلاحظ قلة المقبلين على هذه الأعمال الإنسانية بالرغم من أنهم يشاهدون هؤلاء المعذبين في الأرض؟ تجيب السيدة المساعدة الاجتماعية: « أن عدم الرغبة في مساعدة الآخرين و لو بشيء قليل هو سلوك أغلب الناس، ربما لأنهم لا يرون في ذلك أية فائدة يحصلونها من وراء عملهم.و أناس آخرون يريدون تقديم المساعدة و لكن من دون أن يبرزوا و يعرفوا، لأنهم يتخوفون من تبعات أعمالهم فقد تترقبهم أعين السلطات و تلفق لهم تهما يدفعون ثمنا باهظا من ورائها »

مكتب ضحايا الإرهاب لدائرة بابور :

بعد صعوبات تلقيتها مع المكتب الولائي بسطيف، وجدت استقبالا و صدرا مفتوحا من القائمة على مكتب الدائرة، و هي شابة جامعية متفهمة لطبيعة العمل كون أن أسرتها من المتضررات من الإرهاب، حيث قتل أبوها أثناء الهجوم الكاسح على بابور في 27 رمضان 1995. و تبدو أنها تجاوزت آثار الصدمة حيث تسرد الوضعية التي يعيشها ضحايا الإرهاب دون أي تحفظ، لولا أن أحد المسؤولين طلبها بنبرة حادة للخروج معه، فعادت و قد تغيرت ملامح وجهها، ففهمت الأمر و قد كنت لحسن الحظ حصلت على أهم ما أريد.

تصنف دائرة البابور في المرتبة الثانية ولائيا من حيث تضررها من الإرهاب، حيث بلغ عدد الضحايا الذين قتلوا إلى غاية 2003: 18 ضحية منهم ثماني نساء و عشرة رجال.

و يحظى أبناء الضحايا برعاية الدولة حيث يتلقون منحة شهرية متواضعة، كما تقدم لهم بمناسبة المواسم الدينية و الدخول المدرسي إعانات متنوعة.بينما يوجد 24 طفلا فقدوا آباءهم بحي الطفولة بسطيف و يحظون بزيارات مستمرة من طرف المكتب الولائي للإطلاع على أوضاعهم و البعض الآخر من هؤلاء الأطفال لقي تكفلا من طرف عائلاتهم.

و تبدو هذه المسؤولة مقتنعة بما قدم لهذه الفئة المحرومة التي خلقتها المأساة الوطنية و رمت بها إلى الواقع الجزائري، و ترجو أن يشفق المجتمع على هؤلاء الأيتام و أن يلقوا الحنان والمعاملة الحسنة حتى يكبروا كباقي أفراد المجتمع الآخرين.

المنطقة الشمالية للبابور تفرض عليها سلطة الدولة مع نهاية 2003 :

ظلت مداشر واد عفرة، لرباع، عين بزاز، المرجة و أجمعان بعيدة و خارجة عن سلطة الدولة، ماعدا الجو الذي تلاحظ المروحيات تحلق فيه خلال فترات محدودة ثم لا تلبث أن تعود إلى قاعدتها بعين ارنات. ماعدا نقاط المراقبة العسكرية المقامة بمحاذاة المنطقة الجنوبية والشرقية للبابور وهي نقاط : لجوادة، مجرقي، بوصلدوع و تازروت فباستثناء هذه الرقابة المحدودة فإن المنطقة الشمالية للبابور هي ملك للجماعات المسلحة تصول و تجول فيها دون أي مضايقة. وبعد هجرة السكان نهائيا سنة 1997 صارت في مأمن تام من أي أحد يمكن أن يقدم معلومات عن تحركاتها.

كل هذه الأوضاع جعلت المنطقة معزولة عن ما جاورها، و اكتسبت هالة من الخوف و الرعب فلا أحد يفكر في التوجه نحوها و من يجرؤ على دخولها فعودته غير مضمونة، و صار في تصور الناس و كأنها جزء محظور انفصل بجغرافيته و مجموعته البشرية و قوانينه الخاصة التي تختلف عن سائر القوانين و الأعراف.

و لا يمكن إلا رؤية دوريات الجيش و الحرس البلدي و هي تتحرك على الطريق الواقع أسفل الجبل، وبتعزيزات كبيرة تكلفها في بعض الأحيان خسائر في الأرواح. كما يتناول الناس من حين لآخر خبر نزول امرأة هاربة من الجبل تسلم نفسها للسلطات الأمنية مثل ما حصل في أكتوبر 2002 و آوت 2003 أو تحركات أفراد المجموعات المسلحة ليلا لجمع القمح بعد أن تأكدت من جمع الفلاحين لمحصول السنة، و هو قليل على اعتبار أن هذه الزراعة محدودة جدا نظرا لصغر المساحة الزراعية. كما تتحرك لمطاردة شباب الخدمة الوطنية حيث اختطف أحدهم منذ حوالي تسعة أشهر مضت من سنة 2003، عدا ذلك لم يسجل أي تحرك قوي لهذه الجماعات كما كان عليه في منتصف التسعينات.

و يبين هذا الوضع تقهقر هذه الجماعات وانطوائها على ذاتها و تراجعها إلى محيط محدود انحصر في الجبل.

منتصف سبتمبر 2003 و تحرك قوي للجيش :

على غير ما عهد من قبل كان تحرك الجيش ملحوظا و بشكل ملفت للانتباه فلمدة دامت أكثر من أسبوع ليلا و نهارا ظلت قوافل الجيش متخذة طريقها في اتجاه بابور، و كثرت التساؤلات! إنها عملية تمشيط واسعة قصد محاصرة جماعة حطاب التي هي بصدد عقد مؤتمر وطني لها، و تضاربت التقديرات لعدد الجيش ما بين ثلاثة آلاف إلى عشرون ألفا.

و بمجرد أن وضعت الآليات الحربية الضخمة من مدافع و قاذفات صواريخ و غيرها حتى صرنا نسمع القصف المدفعي طيلة الليل و شوهد انتشار واسع لأفراد الجيش و الحرس البلدي و الدفاع الذاتي . و بدأت عملية التمشيط التي مكنت الجيش لأول مرة من دخول غابة البابور الكثيفة، التي لم يسبق له و أن دخلها منذ أن اعتصمت هذه الجماعات بالجبل في 1992.

و قد استحال على القوات الاستعمارية إبان الثورة التحريرية أن تدخل غابة البابور كذلك.و بعد أسبوع من بدء العمليات العسكرية تناقلت الصحف الوطنية أخبارا متباينة فجريدة الوطن أشارت يوم 2003/09/27 إلى مقتل 150 عنصرا في عملية تمشيط البابور، كما تداول سكان البابور أخبار عن تمكن أحد أبناء المنطقة من التسلل إلى بيته حيث ترك زوجته و أبناءه بمنزله ثم هرب قافلا إلى الجبل. و صار الناس يشاهدون سيارات الدرك و السيارات العسكرية و هي تحمل على متنها أطفالا ونساء ألقي عليهم القبض بالجبل بعد أن تمكنت قوات الجيش من السيطرة على النقاط الاستراتيجية.

و توالت الأخبار المتضاربة عن وجود جماعات الأجانب من الطالبان و جماعة القاعدة وجماعة السنة و الفتح التابعين للجماعة السلفية للدعوة و القتال التي يقودها حسن حطاب الأمير الوطني الذين قيل أنهم بصدد عقد مؤتمر وطني.

مجتمع من نوع آخر و حياة خارج العصر :

يوم 11 أكتوبر في نشرة أخبار الثامنة للتلفزيون الجزائري عرضت ندوة صحفية لقائد الناحية العسكرية الخامسة أعطى من خلالها الحصيلة الأولية للعمليات العسكرية و هي: قتل عشرة أعضاء من الجماعة المسلحة و إلقاء القبض على 28 عنصرا أحياء معهم 82 طفلا و 25 امرأة. و سمح بعد ذلك للصحافة الوطنية بالصعود إلى المناطق التي كانت محرمة من قبل ومنها الخناقة الحمراء التي وصفها أحد الصحفيين بالمنطقة التي تكاد تتوقف عندها الحياة.

و هناك لاحظ الوفد المشكل من الصحفيين و السلطات المدنية و العسكرية المغارات التي نشأ بها مجتمع من نوع آخر و تقوم بها حياة خارج العصر؛ حياة وسط القردة و الذئاب، حياة فتح فيها أطفال أعينهم وسط الظلام الدامس بالمغارات، و وسط الغابات الكثيفة التي لا يتسلل نور الشمس خلالهاحتى في أشد الأيام تشمسا، أطفال لا يعرفون عن المجتمع الآخر إلا ما يسمعون عن الكبار من أسماء كالطواغيت و أعداء الله و غيرها من الأوصاف الشنيعة.

أطفال يعيشون في ظروف جد سيئة فلا أكل و لا شرب مناسبين للصحة، و تحت ظروف مناخية قاسية أثناء الشتاء الذي تبلغ فيه درجات الحرارة أدنى مستوياتها فلا يطيق الجسم البشري تحملها ، كما أنهم لا يعرفون النظافة و لا قواعدها إطلاقا. مجتمع من الأطفال لما استقدم من طرف الجيش و وضع في مراكز إيواء خاصة استغرب لما رأى المصباح الكهربائي، و بقي مندهشا من بعض المأكولات التي قدمت لهم لأنهم لم يروها طيلة حياتهم.

و مما يحكى أن أحد الجنود سلم لأحد هؤلاء الأطفال حلوى و شكولاطة ثم سأله من أكون أنا؟ فأجابه بأنك الطاغوت، فتبسم ضاحكا ملتمسا العذر لهذا الطفل البريء من هذه المأساة التي صنعها الكبار و أداروا فصولها بمكر فكان من نتائجها هؤلاء الضحايا المساكين.

كما يحكي أحد الموظفين بمحكمة عين الكبيرة وضعية هؤلاء الأطفال الذين بدوا يتصرفون داخل بهوها و كأنهم جاءوا من عالم غريب بعيد عن عالمنا بقرون.

أطفال بحي الطفولة لإدماجهم و معالجتهم:

نقلت جريدة Liberté[1] صورا حية عن تحقيقات ومقابلات قامت بها مع بعض الأطفال الذين وضعوا في حي الطفولة بسطيف. ومقابلات أخرى أجرتها مع المختصات النفسيات القائمات على رعاية ومعالجة هؤلاء الأطفال. وقد سبق لي وأن اتصلت بنفس المركز بعد أن علمت بوجود أطفال ضحايا الإرهاب لكن مدير المركز قال لي بأنه لا يوجد عندنا أي طفل، وفهمت منه أنه رفض فتح مجال العمل أمامي لأسباب لم أجد لها تفسيرا.

ورد فيما نقلته جريدة ليبرتي : أن الأسماء التي سمي بها هؤلاء الأطفال لا وجود لها في سجلات الحالة المدنية أو أنها قليلة جدا؛ منها معاذ، والخنساء : الدالة على أسماء قديمة تشابه أسماء الصحابة[2] والصحابيات رضوان الله عنهم.

---

(1) Liberté du : 20/10/2003

(1) الصحابي : هو من عايش النبي (ص) و صاحبه.

أطفال منهم من ولد بالجبل، ومنهم من ألحق به وهو في سن صغيرة لا تتعدى أربع سنوات.
معاذ أثنا عشرة سنة، أبوه قتل أثناء اشتباك مع عناصر الجيش الوطني الشعبي وأمه أدخلت السجن وأخوه ذو عشرين عاما مازال بالجبل. وجد نفسه بمركز الطفولة الذي يمثل محيطا حياتيا جديدا بالنسبة إليه. بعد أن قضى هو وعائلته ثلاث سنوات بالجبل، وقد أصيب بفقدان الذاكرة ولم يتذكر سوى عبارة << ألا تعرفون أنه يوجد سد هناك>> ويقصد به سد إيراقن الذي يعتبر أحد سكانه.

وتسرد قصة نهيدة الموجودة بحي الطفولة كذلك،و التي تقضي وقتا طويلا منقبضة على نفسها خائفة مما يحيط بها. ولا تفرط أبدا في وضع الخمار على رأسها، ولا تتوقف من حين إلى آخر عن خدش أطراف جسمها ورأسها من جراء القمّل الذي مازال ساكنا جسمها النحيف الصغير.

وتقول إحدى الطبيبات النفسيات أنه أثناء وصولهم (الأطفال) إلى المركز كنا نرى القمل يتحرك على رقابهم أما الآن فإن وضعهم بدأ يتحسن نسبيا، كما أن آثار الجرب الذي غطى أطراف أجسامهم بدأت تتلاشى وفقرات العمود الفقري وعظام القفص الصدري يمكن رؤيتها بوضوح مما يدل على صعوبة الحياة التي عاشها هؤلاء الأطفال في مجتمعهم الجبلي المتوحش.كما أزيلت مظاهر الشعر الملبد وقشور الأوساخ المتراكمة، والرائحة الكريهة المنبعثة من أجسامهم والتي تبين أنهم لم يغتسلوا منذ أشهر.

ومن المشاهد التي شدت انتباه سكان مدينة بابور حينما نقلت مجموعة من النساء إلى الحمام ليغتسلن ويزلن الرائحة الكريهة المنبعثة من أجسامهن، حيث تجمع الناس من الخارج وهم يراقبون هذا المشهد الذي لم يسبق لهم وأن شاهدوه.

ففي السابق لم تكن تثير انتباههم امرأة أو مجموعة من النساء لما يدخلن هذا الحمام فالوضع عادي بالنسبة إليهم. أما هذا فهو جديد ومثير، مما أجبر السلطات على تفريقهم.إنه وضع صنعته المأساة الوطنية وتركت جزائريين يصلون إلى مثل هذه الحياة الغريبة.

وتشير المختصات النفسيات كذلك وهن يرافقن هؤلاء الأطفال إلى حديقة التسلية المحاذية لمركز حي الطفولة، أنهم عرفوا القردة والثعالب، بينما لم يتمكنوا من معرفة الحيوانات الأخرى الموجودة بالحديقة، مثل الجمال، والجواميس وغيرها.

وتظهر التربية التي تطبّع عليها هؤلاء الأطفال في الطريقة التي يتناولون بها الطعام، فأثناء الشرب يمسكون بالكوب وهم مرتكزين على إحدى الركبتين .

كما أنهم يبقون مندهشين لكيفية تناول قطعة الجبن المغلفة و غيرها من سائر المأكولات التي لم يتعودوا على أكلها من قبل ، إنه جو جديد و عالم مغاير تماما لما ألفوه و تعودوا عليه من قبل.

كيف سيندمج هؤلاء الأطفال مع المجتمع ؟

يمكن اعتبار هؤلاء الأطفال بأنهم بمثابة اكتشاف جديد بالنسبة لإدارة حي الطفولة و طاقمها التربوي، كما أنا المجال مفتوح أمام بقية الباحثين.

علاقات قرابة غريبة عن المجتمع الجزائري :

في ظل العزلة التي ضربتها هذه الجماعة على نفسها و انفصالها عن المجتمع و اتخاذها لنظام حياة خاص بها، أقامت نظاما غريبا من العلاقات أوردها بعض الصحافيين و أدلى بها المقبوض عليهم من الرجال و النساء بحيث تنقسم الجماعة إلى فئتين : فئة المتزوجين و فئة غير المتزوجين تعيشان منفصلتين.

ففئة المتزوجين من الذين التحقوا قبل غيرهم بالجبل و المسؤولين الكبار يحق لهم الزواج بمن يقع عليهم اختيارهم من النساء، و هذا إلى غاية وفاة أحدهم حينها يختار أو يرشح من هو أهل من العزاب للتزوج بالمرأة المتوفى عنها زوجها الأول.و هناك من النساء من وصل عدد أزواجها إلى ثلاثة يخلف كل أحد الآخر في حالة وفاته و بالتالي صارت المرأة أما لأخوة من ثلاثة أباء.

و ليست بيدي معلومات عن تطبيق الحدود في حالة تعدي أحد الأفراد على حرمة الآخرين أو تجاوز الأعزب لحدود مجتمع العزاب إلى مجتمع المتزوجين، هذه كلها مجالات بحث مفتوحة مستقبلا. إن الظروف الأمنية والتحفظ من طرف الأشخاص والهيئات يبقى وإلى مدة زمنية قد تطول مانعا دون البحث فى هذه المواضيع الحساسة.

كلمات و ألفاظ جديدة أنتجتها المأساة الوطنية :

إن أي وضع إلا و له من المعاني و الألفاظ الدالة عليه ما يجعله ينعكس في شكل لغة ومصطلحات تبرز الواقع و تصوره تصويرا تعرف فيه الحوادث الاجتماعية مع الدلالات اللغوية. و الواقع الجزائري الصعب الذي ملأته حوادث العنف و العنف المضاد و ما صاحبه من قتل و اختطاف و مداهمات و تخويف و ترهيب و اغتصاب و قطع للطرقات و جثث وأشلاء و دماء و دموع و أحزان و أيتام و أرامل و جرحى و معطوبين و مصدومين نفسيا وهاربين و نازحين و فارين من بيوتهم و معتصمين بالجبال و متمركزين بتجمعات سكنية تفتقر لأدنى شروط الحياة و تعذيب و استنطاق و تطبيق لسياسة الكل أمني و انتقام و أحقاد و

تبادل للتهم من استئصاليين و ظلاميين و متعصبين و متعطشين للسلطة و لائكيين مستلبين وإسلامويين متواطئين ضد البلاد و مستقدمين لمشاريع الموت و سياسة الأرض المحروقة ومطبقين لمشاريع ضد قيم المجتمع و دينه و مهربين للأسلحة و للمخدرات و ناشرين للجريمة المنظمة و متسترين وراء الدين و آخرين وراء الحداثة.كل هذه المصطلحات و المعاني وغيرها كثير تعكس مأساة وطنية عاشتها الجزائر و ذاق الجزائريون مرارتها منذ 1992 وما يزالون إلى الآن و إن خفت ،ورجع الأمن إلى كثير من المدن و الأرياف و بدأت حركة التنقل والسياحة تعرف عودة طبيعية إلى ما كانت عليه من قبل.

هذا بعد تضحيات و صبر كبير للشعب الجزائري الذي لم يتورط في الصراع على الحكم ورأى أن أمنه و استقراره أولى، فاقتتل الطامحون إلى الحكم و سقط عشرات الآلاف الأبرياء من ممن لم يكونوا معنيين بالأمر لأن الفتنة تصيب دون انتقاء.

و بفضل وقوف قوات الجيش أمام ناشري القتل و مستبيحي دماء الناس دون وجه حق و إن كان هناك حق قد ضاع فما الذي جعل الأبرياء هدفا و ترسا يتترس به.

كما وقفت فئة من الخيريين من ساسة و رجال فكر و أئمة و مثقفين يدعون إلى التعقل و تغليب منطق التحاور على منطق الاقتتال فسمع لدعوتهم كثير من الشباب و على رأس تلك الدعوات قانون الرحمة الذي توج بتوقف بعض حاملي السلاح و نزولهم من الجبال منذ 1997.

و تناول الناس ألفاظ و كلمات كانت لها إيحاءات و معان تثير مخاوف الكثيرين و تدفع البعض الآخر على التنّدر و المزاح بها في المجالس و الجمعيات، و من بينها :

- **الصعود إلى الجبل** : صارت جملة : طلع للجبل تثير مخاوف الكثيرين و يحاولون معرفة اسم الصاعد إلى الجبل حتى تتخذ الحيطة و الحذر أثناء ذكر اسمه الذي لا يكون في أي مقام وبالتالي دخل الناس وضعا جديدا في علاقاتهم و هو الخوف و الحذر و الاحتياط فقد لا يدري القائل ماذا سينجر عما يتلفظ به، وقد حصلت الكثير من الحوادث بسبب كلمة كهذه .

- **التحق بالمجموعات المسلحة**: هذه الجملة تكاد تكون من حيث وقعها كالجملة السابقة و لا يفرق في بداية الأمر إلى أي جماعة انظم؛ الجماعة الإسلامية المسلحة GIA و الحركة الإسلامية المسلحة MIA ثم توالت أسماء الجماعات المنشقة ليبلغ عددها العشرات.

- **أميـــــر**: و يعني مسؤولا على مجموعة من الأفراد انطلاقا من مفهوم إسلامي يستند إلى حديث النبي (ص) : « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم ». و صارت أسماء الأمراء تتخذ كنيات الصحابة منها : عمير، معاذ، أبو العلاء ...

- **عملية إرهابية**: تطلق على كل عمل مسلح استهدف أشخاصا يمثلون الدولة أو مواطنين عاديين أو استهدف مؤسسات تابعة للدولة أو مؤسسات خاصة.

- **زواج المتعة**: كل عملية زواج تتعرض لها امرأة تم اختطافها بالعنف من منزلها أو التحقت بمحض إرادتها بالجماعات المسلحة و عقد عليها عقد القران وفق أسس شرعية لا يتوفر على شروط الرضى و حضور الولي و المهر.

- **ضحايا الإرهاب**: مجموعة الأفراد الذين قتلوا من طرف المجموعات المسلحة و ينطبق نفس المعنى على الأبناء و الزوجة الذين قتل المسؤول عنهم و هو الأب أو الآباء الذين قتل أبناؤهم.

- **رجال واقفون**: أطلقته في بداية الأمر السلطات السياسية على المواطنين الذين حملوا السلاح في وجه الجماعات المسلحة و تعاونوا مع عناصر الجيش و الدرك و الشرطة، و منهم تم تشكيل ما يعرف برجال الدفاع الذاتي المتواجدين في الأرياف و المدن الصغيرة و صاروا يتقاضون أجرا و يقومون بأعمال حربية شبه عسكرية.

- **الحرس البلدي**: ظل هذا الجهاز يعمل منذ الاستقلال إلى غاية 1984حيث ألغي، و في سنة 1996 استحدث من جديد، و أشار أحد رؤساء الحكومات قائلا: "إننا لم نكن نتوقع إقبال المواطنين للتجنيد في هذا الجهاز بهذا العدد الكبير الذي وصل كما قال إلى 60000 عنصرا "

- **المحشوشة**: و هو سلاح تستعمله الجماعات المسلحة على شكل سلاح خفيف و هو عبارة عن بندقية صيد مقطوعة الماسورة، يتم إخفاؤها تحت اللباس و بالإمكان استعمالها في المدن، تحشى بالبارود و قطع الحديد و من يتعرض لإصابتها قلما يشفى من إصابته.

- **الهباب** : و هو عبارة عن مدفع تقليدي استعملته الجماعات المسلحة من أعالي المرتفعات في قصف المدن و التجمعات السكنية محشو بالمتفجرات و بقايا الحديد.

- **العقـــــونة**: يطلق على السلاح الكاتم للصوت الذي يستعمل في ضرب أهداف محددة لا يسهل الوصول إليها.

- **الجنرالات**: صار تداول اسم الجنرالات الذين اقترن ذكرهم بتوقيف المسار الانتخابي والتوقيفات و فتح معتقلات الجنوب و سلسلة الاغتيالات، و الحاويات و السيطرة على التجارة الخارجية و ما يصطلح عليه: Import-export.

- **معتقل عين امقل**: أشهر معتقل فتح في أقصى جنوب البلاد و قدر عدد أعضاء الجبهة الإسلامية للإنقاذ النشطين الذين وضعوا فيه 10000 معتقل، و هناك من قضى فيه أكثر من

04 سنوات يعتبره كثير من النشطين في مجال حقوق الإنسان من أكثر الصفحات سوادا في تاريخ الجزائر الحديث.

- **الانتماء إلى الفيس**: ظل الانتماء إلى هذا الحزب الممنوع قانونا منذ 1992 يشكل متاعب لكل من تلحق به هذه التهمة، فصاحبها يضيع حقوقا كثيرة كالحصول على الشغل أو امتيازات اجتماعية كالسكن والسجل التجاري وغيرها، وغالبا تأتي التحقيقات الأمنية سلبية للمنتمين للفيس، وبدأت هذه النظرة الآن تخف حدتها.

- **الانخراط في أسلاك الأمن**: يعتبر الانخراط في أسلاك الجيش والدرك والشرطة والحرس البلدي بمثابة إعلان حرب على الجماعات المسلحة وانضمام لصفوف الطاغوت، وبالتالي أي عنصر يقع في قبضتها لا ينجو منها على أي حال من الأحوال.

- **المفقودين**: وهم أفراد شرع في اختطافهم من طرف أجهزة الأمن بطريقة قسرية خفية وفي بعض الأحيان أمام الناس وبطريقة عادية، حيث استدعوا من أجل التحقيق من طرف مصالح الأمن، ثم لم يظهر عنهم أي خبر وتقول الإحصائيات الرسمية أن عددهم 4000، بينما يقدرهم رئيس الرابطة الجزائرية للدفاع عن حقوق الإنسان بـــ 7200 وهذا حسب الملفات الموجودة بين يديه، وبالرغم من غلق المعتقلات لم يعد هؤلاء إلى أهلهم رغم شدة الإلحاح وتنظيم التجمعات أمام مصالح الدولة أسبوعيا وخاصة في العاصمة والمدن الكبرى، إلا أن هذا الملف لم يسوى وقد أنشأ الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة اللجنة الاستشارية لحقوق وآلية متابعة ملف المفقودين، إلا أن ذلك في نظر رئيس الرابطة الجزائرية للدفاع عن حقوق الإنسان هو إجراء انتخابي استعدادا للانتخابات الرئاسية في أفريل 2004.

- **مظاهر مؤثرة**: من المشاهد المفزعة والمؤلمة جدا التي رأيتها ذات صباح بارد من أيام شتاء 1994 أمام مدخل ثانوية بني عزيز التي كنت أعمل بها هي صورة رئيس دائرة بني عزيز الذي تعرض إلى اعتداء بالسلاح حينما كان بسيارته بساحة الثانوية، مرافقا زوجته إلى مقر عملها بالثانوية، وقد سقط وهو مضرج بالدماء يعاني من نزيف في رقبته وآخر في صدره، وقد تعاونت مجموعة من التلاميذ على حمله في سيارة خاصة، ألا أنه توفي بعد ذلك متأثرا بجروحه، ومما زاد المشهد أكثر حزنا وألما، حينما صارت زوجته وأولاده الصغار يبكون من جراء هول الصدمة، وبعد أيام من دفنه، عادت زوجته إلى الثانوية لتوديعنا وعيناها تنهمران بالدموع ، ثم شكرتنا على وقوفنا نحن عمال الثانوية إلى جانبها في محنتها الأليمة.

وصورة فرد من الجماعات المسلحة قتل بأحد المنازل القريبة من ضواحي عين الكبيرة، حيث كان مختبئا، ولم يتوقف الحادث هنا فقط بل ربطت جثته المضرجة بالدماء بمؤخرة سيارة الدرك وهي تجوب شوارع المدينة عند حدود المغرب وكانت ابنتي وعمرها ثلاث سنوات تسألني ما هذا، وأنا أحاول أن أمنعها من رؤية هذا المشهد المفزع واللاإنساني.

مشاهد من المأساة لم يتعود الناس على رؤيتها.

لم يتعود الجزائريون منذ الاستقلال على كثير من المشاهد السيئة المثيرة للقلق و الخوف و التوتر إلا منذ بداية التسعينات إلى الآن و منها:

- **مظاهر الدفن و الجنائز**: ظلت مشاهد المشيعين نحو المقابر و دفن ضحايا المأساة تكاد تكون يومية و لم تخل قرية و لا مدينة منها عبر القطر الجزائري، فهذه جنازة شاب التحق بصفوف الخدمة الوطنية اغتالته جماعة مسلحة بمكان تجنده، و هذا شرطي هو الآخر تعرض إلى كمين إثر دورية عادية فسقط قتيلا تاركا ورائه أرملة و أطفالا صغارا، و هذا شاب آخر تصادف مع مجموعة مسلحة في حاجز مزيف فذبح لأنه ينتمي لعناصر الأمن. و مواطن عادي تعرض للقتل عن طريق الخطأ من طرف وحدة للجيش تقيم حاجزا على الطريق ، و غيرها من أسباب القتل سواء من هذا الطرف أو ذاك التي ذهب ضحيتها حسب التقديرات الرسمية 200 ألف قتيل على المستوى الوطني.

- **القوافل العسكرية و الآليات الضخمة**:

و يتجلى خاصة في المناطق التي لا تتواجد فيها ثكنات عسكرية و لم يتعود سكانها على رؤية هذه القوافل. فخلال هذه المأساة صار تحركها في مناطق البابور عاديا.

- **المروحيات العسكرية تظل تحلق في الجو** :

نظرا لوجود قاعدة للتدريب على المروحيات الجوية بعين أرنات و قربها من السلسلة التلية الغابية التي تتمركز بها الجماعات المسلحة فإن الناس تعودوا على رؤيتها و هي تظل تغدو وتروح لقصف أماكن تمركز هذه الجماعات.

- **توسع مساحة المقابر**:

لقد توسعت مساحة المقابر خلال هذه السنوات بشكل واضح يدل على عمق المأساة و يبين أن الأرواح التي حصدتها الموت كثيرة، و لو أجريت تحقيقات لبينت هذه الوضعية، كما أنشئت مقابر خاصة بأفراد الجماعات المسلحة الذين قتلوا.

- **أيتام و أرامل** :

من نتائج المأساة الأليمة وتمثل أعدادا كبيرة يجب إحصاؤها وطنيا لإبراز حجم هذه الفئة، التي تعد من أكبر المتضررين فمهما تكفلت الدولة بهؤلاء الأطفال الأيتام فلن تعوض لهم دفء الأبوة وحنانها و عطفها و منهم الأبناء الذين قتلوا سواء من أفراد الأمن أو الجماعات المسلحة أو المفقودين.

الآثار المرضية التي تركتها الأحداث على الأطفال:

إن الآثار المرضية النفسية والعقلية التي ظهرت على الأطفال الصغار كثيرة وخطيرة ، بسبب المظاهر المؤلمة والمؤذية التي عاشوها في المد اشر، فذبح الأب أو الأخ على مرأى من هؤلاء يزلزل كيانهم النفسي والعقلي و يجعلهم في وضع غير متوازن، أو حتى أخذ أحد الأقارب أمام نظرهم ففيه من التعذيب للنفس ما لا يمكن تصوره. زيادة على المعاملات الخشنة التي يتلقاها سكان الأرياف من طرف مختلف مصالح الأمن التي تعتبرهم متعاونين مع الجماعات المسلحة، ولا تقبل منهم أي عذر، لأن الذي يسكن هذه المناطق المعزولة لا يملك أي حرية أو إرادة في رفض الأوامر التي توجه إليه، و من يرفض سيكون جزاؤه الموت أو العقوبة. ومن أجل معرفة وضعية هؤلاء الأطفال بدقة، تقربت من وحدة الكشف والمتابعة الصحية بالوسط المدرسي الموجودة بسطيف، و كان لي حديث مع طبيبتين نفسيتين عملتا مع هذه الشريحة التي وقعت ضحية ضغط المرحلة الصعبة خلال العشرية المنفرطة و مما قالتا في هذا الشأن :

أنهما تعاملتا مع العديد من المرضى الذين استقدموا للمركز سواء من طرف أهاليهم أو من طرف المصالح الصحية، مع أن الأكثر لم يتح لهم الاتصال بالمركز لأسباب عديدة: وهي الجهل بالمركز و نقص الإمكانيات و غيرها من الأسباب، و أضافتا أنهما وجدتا صعوبات في التعامل مع الأطفال المصدومين الذين يتصرفون في أول وهلة بخوف و حذر من جميع الناس ويظهر ذلك في تصرفاتهم، فمجرد الاقتراب منهم، ينكمشون أو يرتعدون و يتراجعون إلى الوراء. وعند الحديث معهم يتحرجون كثيرا من الخوض فيما شاهدوه و ما وقع لهم أو لأهلهم وجيرانهم، ويبدون و كأنهم لا يثقون في جميع الناس وأنهم جميعا مصدر خطر عليهم، و لا يمكن أن تزول عنهم هذه الوضعية إلا بعد عدة لقاءات و مقابلات، فعندئذ يتفهمون مقصو دنا.

و في حالات أخرى يتحرج الآباء من المجيء إلى المختص النفساني ويرون أنه عيب أن يصاب أبناؤهم بمرض عقلي أو نفسي.

و تقول الطبيبتان أننا نقوم بإقامة جلسات استرخاء تدوم من حصة إلى ثماني حصص نعمل أثناءها على طرق العمق النفسي للطفل،و نمكنه من عملية التفريغ، تفريغ شحنات الخوف و الرعب التي تسيطر على منظومته النفسية، وعن خطورة هذه الأمراض، أنها كما يقول Frank Zidira : « أن الصدمات النفسية تترك تمزقا أو شرخا في الكيان النفسي يبقي المصابون يعانون من آثارها، و حينها يمكن أن يموت جزء من شخصيتهم بينما يبقى جزء معافى غير أنه يعاني من صعوبة في التذكر، ويمكن القول أنه يعاني من شرخ في الشخصية » وتعد الحالات الخاصة بالأشخاص ذوي السن الصغير أكثر استجابة للعلاج و النجاح من الأشخاص ذوي السن المتقدم.

ومن الأمراض التي يصاب بها المصدومون:

- البكم و التوقف نهائيا عن الكلام.
- تقمص شخصية الإرهابي لدى بعض الأطفال.
- الكبت و الانطواء على الذات و عدم مخالطة الآخرين.
- اضطرابات في السلوك.
- نوبات قلق و هستيريا.
- خلل في النوم، أو النوم المضطرب.
- الهلوسات السمعية و البصرية.
- التبول اللاإرادي.
- الحصر و هو القلق من أمر غير مؤكد.
- التأتأة، و هو الكلام المتقطع.
- القيام بإشارات خاصة كقضم الأصابع، أو ترميش العينين بسرعة، أو غيرها و المعروفة بـــ Tics-nerveux.

تراجع مستوى التعليم وزيادة في الرسوب المدرسي :

نتيجة للوضع المتردي جدا وتزايد عدد النازحين و توقف المعلمين والمعلمات عن الالتحاق بالمدارس البعيدة الموجودة في المداشر نتيجة الأخطار التي تهددهم، توقفت عدة مدارس عن مزاولة نشاطها نهائيا:

- مدرسة بنى بزاز - 1994-.

- مدرسة واد عفرة - 1994-.
- مدرسة تالة إيجرقان -1995-.
- مدرسة مجرقي -1996-.
- مدرستين بتاقليعت –1996-.
- مدرسة تاقربوزت –1997-.

مدارس أخرى تعمل بأعداد قليلة ودون طاقة استيعابها :

- مدرسة سطاح السان.
- مدرسة أولاد يحيى.

وفي مقابلة أجريتها مع طلبة من ثانوية بابور يسكنون مختلف المداشر التي عانت من الإرهاب، في لجوادة و واد عفرة و بني سعيد وغيرها.

يقول هؤلاء التلاميذ الذين كانوا في المرحلة الابتدائية أنهم لا يدرسون خلال السنة أزيد من شهرين، ففي واد عفرة أغلقت المدرسة أبوابها بعد أن هجرها التلاميذ والمعلمون، وهناك مواد لم يعرفها التلاميذ إلا بعد أن دخلوا الطور الإكمالي، ومنها الفرنسية ويعود ذلك إلى عدم وجود معلمين في المنطقة متخصصين في مادة الفرنسية.

وإلى وقتنا الحالي في مدرسة سطاح السان تجمع عدة مستويات لتدرس في قسم واحد، السنة الأولى والثانية والثالثة معا، يدرسون بطريقة لا تفيد ولا تعطي أي تكوين فعال ومجدي فكيف يعقل أن يدرس تلميذ دخل لأول مرة إلى جانب تلميذ السنتين الثانية والثالثة.

ويقول الزبير الذي درس في مدرسة تاقليعت التي أغلقت أبوابها، عن المستوى الدراسي الضعيف جدا للتلاميذ، فقد اكتشف أن هناك من تلاميذ السنة السادسة من لا يعرف القراءة تماما ولا يستطيع قراءة ولو فقرة بسيطة، هذا هو الوضع الذي بلغته حالة سكان منطقة البابور.

جولة عبر دشرة مجرقي المهجورة :

من إحدى أكبر مداشر البابور سكانا و أوسعها من حيث عدد العائلات، حيث قدرت خلال إحصاء 1987 بـــ: 109 عائلة، وهبط العدد خلال إحصاء 1998 إلى 24 عائلة و في 2003 لا يتعدى 5 عائلات.و يمكن أن نلمس الفراغ الكبير الذي تركه النازحون في هذه الدشرة الآهلة، فقد سبق لي و أن زرتها في 1991 خلال إحدى الحملات الانتخابية ورأيت الجو الحيوي والحياة الدءوبة التي يتميز بها سكانها المتآلفون والمتعاونون فيما بينهم، أما اليوم فهي

تحكى قصة قرية خاوية على عروشها، يتملك الحزن والأسى قلوب العائلات المتبقين الذين لكل واحد منهم أسباب دفعته إلى البقاء سوف نتناولها.

كانت هذه الجولة يوم الجمعة 13 جوان 2003 مع أحد سكانها النازحين الذي بقي مواضبا على زيارة منزله كل أسبوع تقريبا، يتفقد بستانه ومنزله ويلتقي مع جيرانه الباقين ليطلع على أحوالهم.

اتفقنا على الموعد صباحا واتجهنا بسيارته في اتجاه مجرقي، وقد بينت له أني متخوف من زيارة المنطقة نظرا لتدهور الوضع الأمني، فمنذ أيام قلائل مضت قتل أحد عناصر الحرس البلدي جراء كمين نصبته لهم الجماعات المسلحة التي تراقب تحركاتهم من أعلى الجبل (جبل بابور)، غير أنه طمأنني لما قال أنه منذ أن رحل وهو يذهب دون أن يصاب بأي أذى.فشجعني وقررنا الذهاب معا ، وعند اقترابنا من الدشرة تبدو لك وهي موضوعة على قدم جبل البابور على سطحه الجنوبي أشبه بزخرفة خضراء على مجسم أعطته بهاء و رونقا، و هي في الحقيقة البساتين الكبيرة التي تضم بين أشجارها منازل متفرقة تبعد عن بعضها البعض بعشرات الأمتار، منازل تظهر حديثة البناء تمر فوقها طريق معبد أنجز خلال الثمانينات ، فك العزلة عن الدشرة وعن المداشر المجاورة لها، سواء في اتجاه واد البارد غربا أو بابور شرقا و عين الكبيرة جنوبا، بالرغم من ضيقه و وعورة مسالكه.

كما أن نقص الصيانة، جعل السيول تحفره و تملأ أرصفته بالأتربة و الحصى، فالسير عبره في بعض النقاط صعب جدا. كما يتراءى لنا من بعيد المسجد الواقع أسفل الدشرة بلونه الأبيض و منارته التي تعلو سطحه.

دخلنا الدشرة فصادفنا بعض الفلاحين بصدد جمع محاصيل الشعير الذي حل موسم حصاده والعلف الذي يسارع من تخلف من الفلاحين القلائل الذين لا يسكن بعضهم الدشرة لجمعه لأن الصيف هذه السنة حار و يوشك القمح على النضج. و بالتالي تتكاثف المشاق على هؤلاء الفلاحين الذين و إن تمكنوا من العمل ببعض الآلات (الجرار، الرباطة) إلا أن الحصادة لا يمكنها أن تحصد بالمنطقة لعدم مناسبة سطحها المنحدر، فالمحصول يجمع إلى مكان مخصص كي يتسنى درسه بالحصادة الدارسة و بالأحصنة على الطريقة التقليدية المعروفة.

قرية خاوية على عروشها :

إن الذي يدخل وسط الدشرة ينتابه شعور بأنها عرفت محنة حقيقية و أن أياما و ليال صعاب مرت على سكانها، وأجبروا على الرحيل واحدا تلو الآخر، فالمنازل المهجورة و الخربة بعد

أن نزعت أسقفها و تركت عرضة لعوامل الطقس يبرز حقا عمق المأساة الوطنية و كيف أن الريف الجزائري مازال يتلقى الآثار السلبية و يتعرض للنزيف. فما هي الأسباب التي تدفع سكان قرية آمنة مطمئنة إلى ترك منازلهم و أرزاقهم مكرهين و الرحيل إلى أي مكان بحثا عن الأمن و هروبا من الظلم؟ ظلم الجماعات المسلحة و متابعات السلطات الأمنية.

فهذا محمود الذي يحكي سكان الدشرة قصته المثيرة التي كانت عبرة للآخرين أنه وضع بالسجن ببابور في ظروف قاسية لمدة 03 أشهر بسبب أنه اعترف أمام هذه السلطات بشجاعة لما قالوا له: لماذا تعطي سيارتك لأفراد الجماعات المسلحة ؟ فأجابهم أن من يسكن مجرقي إذا أتاه أفراد مسلحون و طلبوا منه أي طلب فما عليه إلا أن ينفذ و لا أظن أحدا لا يقوم بهذا ولو كنتم أنتم، فوضعوه في السجن و لما خرج اختفت ملامح وجهه و صار لا يعرف بأنه هو محمود.

تقدمت إلى وسط القرية فوجدت الحانوت التي كانت ممتلئة بلاعبي الدوم ينو قد صارت خاوية خربة لا أحد حولها، فقلت شتان بين سنة 1991 وبين اليوم إن الوضع تغير كثيرا، وتذكرت قول الله تعالى في شأن أمم سابقة : « **و كم من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ».الآية 58 ، سورة القصص.**

وكذلك الطاحونة الوحيدة بالقرية توقفت عن طحن القمح بالرغم من أن صاحبها مازال مقيما.

أناس تحـــدوا الظروف الصعبة و بقوا في منازلهم:

لا يمكن تصور الظروف الصعبة جدا التي عاشها سكان هذه الدشرة منذ 1992 إلى 2003 . يعد تحد حقيقي لقوانين الاجتماع البشري، كما يؤكد ذلك العلامة ابن خلدون: « أن الاجتماع للإنسان ضروري » و يمضي قائلا: « أن الله سبحانه خلق الإنسان و ركبه على صورة لا تصح حياتها و بقاؤها إلا بالغذاء و هداه إلى التماسه بفطرته غير موفية له جادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه و هو قوت يوم من الحنطة مثلا، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن و العجن و الطبخ، و كل واحد من هذه الأعمال يحتاج إلى مواعين و آلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد و نجار و فاخوري »[1] فانطلاقا من هذا القانون البشري أن العدد القليل المتبقي من سكان مجرقي مازال يتحدى صعوبات البعد، فأقرب نقطة لاقتناء

(1) ابن خلدون : المقدمة، الدار التونسية للنشر، 1984، ص 77.

المستلزمات الضرورية للحياة هي الشرفة التي تبعد بـــ 6 كلم يجب مشيها أو امتطاء السيارة و نادرا ما يمكن إيجادها. فمعظم أصحاب السيارات رحلوا ، فلا يمكن إيصال مريض إلى المستشفى أو امرأة تريد أن تضع مولودها.

فعمار أب لخمسة أبناء لم يتمكن من شراء مسكن بضواحي عين الكبيرة لضعف إمكانياته المادية يوجد في حالة من الإحباط الشديد بسبب اشتداد المرض عليه و صعوبة تنقله للعلاج، يقول : « إنني في كثير من الأحيان لا أجد من أجالسه و أتبادل معه أطراف الحديث ».

الشيخ صالح 76 سنة تبدو عليه مظاهر الكبر و المرض و المعاناة بحيث أنه لم يتمكن من الرحيل رغم محاولاته العديدة و هذا لنقص إمكانياته الحالية و لأن الزوجة رفضت مفارقة ابنها المختل عقليا الذي رفض الخروج هو وزوجته وأبناؤه مع محاولاتنا العديدة لإقناعه، فقد أقمنا بقرية تالوبقت التي تبعد حاولي 03 كلم عن مجرقي عند أحد الأقارب، وظلت الزوجة تنتقل يوميا حاملة الأكل لابنها المريض طيلة سنة كاملة، فإشفاقا عليها قررت العودة إلى مجرقي، وهذا تحت إصرار الأم التي تقول لي دائما لا يمكنني أن أفرط في فلذة كبدي، إنه ابني المريض يجب أن أبقى إلى جانبه هو و زوجته و أبناؤه.

استقبلنا الشيخ صالح بوجه طلق وراح يحكي لنا قصة بقائه ومعاناته قائلا: « لقد عشت الحرب العالمية الثانية والحرب التحريرية غير أن هذا الهول كان أشد وأقسى ».

لقد بلغت قسوة القلوب درجة لا يمكن تصورها، فجاره قتل هو وحفيده وجرح ابنه السائق، وقد كان معهم على متن السيارة، فعند خروجهم من الدشرة تعرضت السيارة لوابل من الرصاص دون أن يصاب بأذى، بينما أصيب من كان معه « إنها الأيام، إنها قدرة الله » يعقب قائلا.

ثم يلقي باللوم على جيرانه الذين كانوا مساندين للجماعات المسلحة في بداية سيطرتها ثم الآن لما مالت موازين القوة لصالح الدولة مالوا إلى جانبها.

التعلق بالديار رغم البعد عنها :

تكلمت عن علي الذي صاحبني إلى مجرقي، هذا الرجل المواظب على زيارة مجرقي أسبوعيا تقريبا، و عندما سألته عن سبب ذلك، يقول « لا أجد تفسيرا للأمر، إنه حب و شوق داخلي يدفعني دائما إلى امتطاء سيارتي أنا و أولادي الصغار، لنتفقد أحوال البيت والأشجار، لعلها تعرضت إلى إتلاف فأقوم بإصلاحها »، ثم يستطرد قائلا: « أنه منزلي أمضيت عمري وجهدي من أجل بنائه، قاطعا مسافة 100 كلم ذهابا و إيابا بين مجرقي و سطيف من أجل العمل و كسب المال كعامل في الأشغال العمومية و البناء، تمكنت من بنائه و لما أتمتته لم

أسكنه سوى ستة أشهر فقط، ثم اضطررت إلى هجرانه بعد أن تدهور الوضع الأمني »، ويبقى متأسفا كذلك على الجهد الذي بذله في حفر بئر و غرس حولها عشرات من الأشجار المثمرة من الجوز، اللوز، و العنب و التين التي تعتبر أهم محاصيل الدشرة.

و أجاب عن سؤال وجهته إليه، هل تعود إذا تحسن الوضع على مجرقي و تقيم فيها ؟

و بإجابة غير حاسمة « ربما سأعود أنا والزوجة بينما الأطفال لا أظنهم سيعودون ، و الأمر كلك مرتبط بأفراد الدشرة الآخرين فإن عادوا و تصير الحياة طبيعية كما كانت ربما الأغلبية ستعود لأن مجرقي لا تضاهي جمالها وخيراتها و مياهها الوفيرة أي دشرة في منطقة بابور كلها ».

صلاة الجمعة صارت تقام كل أسبوع:

هذه السنة تقام الصلاة كل أسبوع، فالإمام لذي يعد من أبناء الدشرة رحل منذ الثمانينات إلى عين الكبيرة، وظل طيلة هذه السنوات يأتي كل جمعة وبعض الأيام من الأسبوع ليؤم الناس في الصلاة ويفتيهم في القضايا الدينية التي تعرض عليهم في حياتهم، غير أن تدهور الوضع الأمني و هجرة الناس و تحرك الجماعات المسلحة إلى غاية سنـــــة 1995 بحرية كبيرة، كل هذه العوامل أسقطت فريضة صلاة الجمعة، وفي بعض الأسابيع لا يجتمع العدد الذي تصح الجمعة به و هو أثنى عشر فردا، و بالتالي تؤدى صلاة الظهر فقط ثم يفترق المصلون و يوم 13-06-2003 أقيمت الجمعة بالرغم من أن العدد قليل لم يكتمل به صف واحد بحوالي عشرون مصليا.

مصلون تبدو عليهم مظاهر تأثير السنين الصعبة بعضهم من السكان المقيمين والبعض الآخر قدموا لزيارة الدشرة في ذلك اليوم من العطلة ولجمع محاصيلهم الزراعية. في جو فاتر داخل المسجد ألقى الإمام خطبتي الجمعة حول الخمر ومضارها وحكم الشرع في القائمين على زرعها وإنتاجها وتصنيعها وتسويقها وشربها، وأنهى الخطبتين، فقلت في نفسي وماذا يفيد هذا الدرس هؤلاء المساكين المنكوبين الذين أهلكتهم الأيام وألقت عليهم بثقلها الكبير غير أني عدت وقلت أنه مما يجب أن يعرفه المسلم من دينه من حلال وحرام.

انتهت الصلاة وخرج المصلون، وأخذوا مقعدا من الخشب موضوع بجانب حائط المسجد إلى جانب بعضهم البعض، وقابلهم البعض الآخر بين واقف وجالس على الأرض.

وقد سألني البعض ممن أعرفه من قبل ما الذي جاء بك عندنا ؟ فأجبت جمال منطقتهم الخلاب، كما أنى تقبلت دعوة جارهم على إلى هذه الزيارة ثم مضوا يتبادلون أطراف الحديث حول حالة

وصحة جيرانهم، وكيف يتسنى تقاسم الأدوار فيما بينهم بشأن رباطة العلف: هي الآن عند فلان وستمر إلى الآخر ثم انصرفت أنا ومرافقي وتركناهم وشأنهم على أمل العودة في فرصة أخرى إن شاء الله شاكرا لهم حسن الضيافة و الاستقبال.

خـــــاتمـــــة:

إن هذا البحث الذي دام إنجازه ثلاث سنوات كاملة، إنما هو محاولة بسيطة لفهم الأحداث التي جرت بالمحيط الجغرافي للبابور الذي تأثر كثيرا من المأساة الوطنية وانعكاساتها، وبالتالي انعكست الآثار على المحيط الجغرافي الذي يحيط به من الجهة الجنوبية التي شكلت وحدها مجالا للجذب السكاني، بينما الجهة الشمالية ظلت خالية من السكان.

وهو ما يجعل الريف في المستقبل أمام وضعيات تهدد بانتهاء دوره في تمركز السكان، وبالتالي لا مجال للحديث عن الدور الثقافي المتمثل في الحفاظ على العادات والعراف القديمة للمجتمع الجزائري، إذ يعتبر علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الريف بمثابة المستودع الذي يحفظ ثقافة المجتمع، وبالرغم من تغيره وتطوره عبر الأجيال إلا أن الريف يبقى آخر من يحافظ على ما بقي منها.

كما يوشك أن يتوقف دوره الاقتصادي الذي ظل يؤديه ولا يمكن أن تنوب عنه المدينة والتجمعات الحضرية في تأديته، فالفلاحة كالرعي وبعض الحرف مرتبطة ارتباطا عضويا بالريف ولا يمكن أن تقوم في أي مجال آخر.

ونعود إلى العادات والأعراف والسلوكيات وأنماط العيش وغيرها من الظواهر التي ظلت سائدة في المجتمع تنظم حياته وتجعله يقاوم مشكلات الحياة، وفي مقدمتها الاستعمار الفرنسي البغيض، وقاوم قسوة الطبيعة الجبلية والعزلة والتهميش، وأخيرا قاوم الخوف وبطش الجماعات المسلحة وتعسف الدولة، هذه العادات والسلوكيات من صلابة وطيبة وتضامن وتآخ وتراحم وبساطة ووضوح وتجرد من المفاسد والخبائث وغيرها، هي اليوم مهددة بالزوال والاضمحلال في المحيط العمراني الذي تتشابك فيه العلاقات وتتعقد بسبب اختلاط الناس وتجمعهم من شتى الجهات والمشارب بعد أن قهرتهم ظروف العزلة والخوف و الأعمال الإجرامية.

إن التحولات التي شهدها المجتمع الجزائري في السنوات الخيرة جد عميقة وتركت المأساة الوطنية بصماتها واضحة على مختلف الأصعدة.فالضحايا كثيرون وفي مقدمتهم ضحايا الإرهاب من نساء وأطفال وآباء، تأثرهم نفسيا واجتماعيا مازال وسيستمر في المستقبل إن لم يكن له علاج مناسب، و إلا ستنجر عنه ردود أفعال وتصرفات مضرة وسلبية.

والذين تعرضوا لتعسف ومختلف أجهزة الدولة المنية هم كذلك من ضحايا هذه المأساة الوطنية يجب على الدولة أن ترد إليهم حقوقهم حتى تعود لهم ثقتهم بوطنهم وبدولتهم.

واللهجة القبائلية هي الأخرى مهددة بالاندثار وخاصة لدى الجيل المتمدرس، فلم تعد حاجته للتكلم بها قائمة، بل يرى أنه قد تجاوزها الزمن، وبالتالي فهذا الموروث الثقافي ما هو مصيره مستقبلا؟ كما وقفت من خلال عملي على مواقف متباينة تبرز كيفية نظرة الناس وتفسيرهم لهذه الأحداث الأليمة.

فالمواطنون البسطاء وبعض الموظفين لا يرون أي حرج في التحدث والكشف عن الحقائق وهذا ربما مرده إلى تجردهم من الالتزام والمسؤولية، بينما وجدت تخوفا وتهربا وتحفظا شديدا من بعض المسئولين، وهذا يطرح تساؤلا مهما، لماذا هذه المواقف التي تمنع من الوصول إلى معرفة الحقائق ؟ هل أنهم متورطون في تجاوزات غير قانونية ؟ أو ان المسؤولية والشعور بقيمة الكلمة والحفاظ على استقرار المجتمع والبلاد هو الذي جعلهم يقفون هذه المواقف. وهنا يجب اعتبار السكان الذين رفضوا الميل إلى هذا الطرف أو ذاك ووقفوا محايدين قد ساهموا بقسط وافر في حل الأزمة مفضلين التضحية بأرزاقهم على حمل السلاح.

كما أتضح للجميع وصار أمرا غير ملتبس كما كان حاصلا أثناء اشتداد الأزمة الأمنية، إن الإسلام دين لا يمكن الخلط بينه وبين المنتسبين إليه وما يحصل عنهم من أخطاء وتجاوزات، فالجماعات المسلحة التي سمت نفسها بالإسلامية، ليست هي الإسلام بكل معانيه السامية، وما قامت به من تجاوزات وجرائم في حق الأبرياء من المواطنين وتقتيل في صفوف أفراد الأمن ليس جهادا، وليست بأعمال يتقرب بها إلى الله.

كما تبين لي من خلال المعطيات الإحصائية المتعلقة بعدد الضحايا الذين سقطوا طيلة هذه الأحداث والمقدر عددهم بـــ 18 فردا، لا يشكل وضعا كبيرا كما يتصوره البعض، فهذا العدد قياسا بعدد السكان من البلدية الذي يقارب 20 ألف مواطن ليس ضخما، وهذا يبرز بأن الظاهرة الإرهابية صاحبها تضخيم كبير فاق حجمها، كما أن عدد الملتحقين بهذه الجماعات لا يتجاوز 20 فردا من بينهم 6 نساء، وأغلبيتهم قدموا من العاصمة وإن كانوا من أبناء البلدية في السابق، وهو ما يبرز كذلك التجاوب الضعيف للشباب مع هذه الجماعات المسلحة ورفض الالتحاق بها رغم أساليب الضغط والإغراء الممارسة عليهم.

كما وقفت على عدم صحة تصريحات المسئولين على المستوى الولائي أمام الصحافة والتي ورد فيها أن سكان البابور شرعوا في العودة إلى مساكنهم ومداشرهم بسبب تحسن الوضع الأمني، فما سمعته من هؤلاء السكان ومن غيرهم أن العودة النهائية مازالت بعيدة وقد تكون مستحيلة حتى ولو ذهبت الجماعات المسلحة نهائيا، لأن شروط الحياة الكريمة مفقودة تماما،

إن هذه المقاربة الأنثروبولوجية التي تتناول منطقة البابور الجبلية هي محاولة بسيطة، واجهت فيها صعوبات عديدة، وفي مقدمتها موقف المسئولين المحليين على مستوى بلدية البابور الذين صدوا في وجهي الأبواب ورفضوا تقديم أدنى التسهيلات التي تمكنني من القيام بعملي، كما واجهت صعوبة التحكم في الميدان المتشعب والذي تجد كل جانب منه جدير بالدراسة، وربما يعود السبب إلى قلة الخبرة والمهارة وهو ما اكتشفه فيما بعد، ففي السنتين الأوليين كنت أمضي وقتا طويلا دون أن أتمكن من حصر عناصر موضوع من المواضيع وأوفق في معالجته، ثم فيما بعد صار من السهل أن أدخل أي موضوع وأبدأ في تحليل عناصره.

وما زلت رغم انتهائي من إنجاز المذكرة أشعر باني لم أصل إلى الإجابة على كثير من التساؤلات التي تدور بذهني، وهذا لعدم امتلاكي لعناصر الإجابة، فالتحفظ والسرية نظرا لحساسية الموضوع حالا دون وصولي إلى كثير من الحقائق التي أردت الاقتراب منها، كما أن هناك قضايا وحوادث لا تتشكل حولها الصورة الحقيقية إلا مع مرور الزمن الذي هو وحده الكفيل بمعالجتها وإبرازها.